

شذرات ثقافية
العدد الرابع والعشرون
الاستغراب الهندى والتجسير العلمى
د. نجاة الطاهر قرفال
فنوننا بين الخصوصيه والتبعيه
أد. ناصر سنه
الدلائل العقليه على صدق النبى
د. على حسن الروبي
منهجيه مقدمه لدراسه مادة التفسير فى مرحله دراسيه
د. محمد داود السواتى
الهجرة وأداء الأمانه
الباحث/عصام جمعه
قضاء حوائج المسلمين وإغاثه الملهوف
الشيخ/أحمد على تركى
قصه حرق مكتبه بغداد
الباحث/أحمد الجمال
رئيس التحرير
وائل مجدى
عامان من العطاء

الفهرس

تقديم



الشذرات التى غدت غيثاً

منذ حولين كاملين ، وحين بدأت مجلة شذرات ثقافية تصدر على وفق المعطيات الحديثة على الشابكة العنكبوتية ، وتتاح للقراء مجانا في أولى لحظات صدورها – لم يكن يتخيل أحد أن مداد المجلة سيظل قائما ، فجل ما كان يتصوره متابع لخطوات رئيس تحريرها –الكاتب الدؤوب الأستاذ وائل مجدي– أن خطوته لن تكون سوى رشفة ماء على طريق توشك أن تتبخر مع إشراقة شمس صائفة ، وأفضل التوقعات أنها ستكون كالبئر الذي يحفر في قعر الصحراء، ثم يجف بعد أسابيع، ويتحول إلى طل لا يبكيه أحد .

مع تتابع الشهور ثبتت المجلة ، وعلى مدى حولين كاملين غدت الشذرات غيثا ينبت العشب والكلأ الذي يسر الناظرين .

إن مراجعة واحدة فاحصة لأعداد المجلة التي أتمت عامها الثاني ليذهل المطالع من سمو المعالجات للمواضيع التي تناولتها ، ثم تكون المفاجأة أنها لم تجمع حطاب الليل ليكتبوا فيها ، ولا هي ابتذلت مسطورها ليقرأه الخُطَّاب ، فارتاد الكتابة فيها ثلة من الأخيار المشهود لهم بجودة القريحة، وسمو الفكر، واعتدال المنهج ، ووسطية التوجه .

ثم نوعت في كتَّابها بين الأكاديمي المرموق ، والصحفي المتخصص، والداعية المحافظ ، والكاتب المحترف .

لقد غدت الشذرات كالجنة الوارفة ، يردها كل مشتاق ، فموضوعاتها تروي كل ظامئ متعطش ، ومعالجاتها للموضوعات لا تخرج عن السداد .

ولم تقف المجلة من كبريات الأحداث التي عصفت بالساحة ، ولم تهمل الحديث عن الأعلام الذين غادرونا إلى الآخرة ، ولم تجعل الحديث عن الراحلين مناحة كاذبة ، بل قدمت عنهم ولهم ما يشوق من يعرفهم للمزيد ، ويعرف من لا يعرفهم كم فاته لما لم يعرفهم ، فكان رثاء الأعلام رسالة قبل أن يكون مجاملة من نائح مستأجر.

إن المجلة في حلتها بعد عامها الثاني تثبت في الأرض كالغراس المثمر ، فمن لم يأكل منه استظل به ، ولم يعدم منه –إذا مرَّ به – نفعا.

ستظل المجلة بتراثها الذي حررته على مدار حولين كاملين وثيقة وشهادة على الفترة التي ولدت فيها ، وإني لأثق إنه مع مرور السنوات ستكون تجربتها عرضة للبحث الصحفي ، وستوضع يوما ما في تاريخ الصحافة الإلكترونية كغراس وارف، وتجربة مكينة ، ولدت مكتملة ، ولم يعتريها شيب .
التحية واجبة لكل من رقم فيها سطرا ، والتحية واجبة لرئيس تحريرها الدؤوب المثابر ، والتحية مقدما لكل من سيكون بعد حين من كتابها ومحبري موضوعاتها.

د. محمد أحمد عزب
أستاذ مساعد العقيدة
والفلسفة الإسلامية

الاستعراب الهنديّ والتجسير العلميّ من خلال "نزهة الخواطر"[1]

د. نجاة الطاهر قرفال: جامعة قابس–تونس
guerfeell@hotmail.fr

المقدّمة:

يعدّ البحث في الاستعراب الهنديّ والتجسير العلميّ من أوكد المباحث الحضاريّة اليوم. ذلك أنّ الحاجة إلى التعاطي مع الآخر والتعايش معه ثقافة ومثاقفة وتثاقفا باتت من شروط البقاء الإنسانيّ، لا سيّما إذا كان ذلك الآخر يقع ضمن المشترك الثقافيّ. فالسؤال عن جدوى تلك الحاجة فاقد لجدوى طرحه. ولئن كان من المألوف النظر في شأن التجسير المعرفيّ في الرحلات والبعثات والندوات والمؤتمرات والزيارات والمراسلات، ممّا له صلة بالعلم، فإنّ النظر في كتب الطبقات والتراجم بحثا عن معالم التجسير العلميّ يعدّ بحثا طريفا مغريا يشدّ الباحث بما يمكن أن يوفّره له من مادّة علميّة تستجيب لمطلبه. لقد شهدت العلاقات العلميّة بين علماء العرب وعلماء الهند محطّات رفيعة المستوى بشهادة القاصي والداني. ومعلوم أنّ هذه المحطّات توطّدت عراها بفضل الصلات السياسيّة والحركيّة التجاريّة، خاصّة. لكنّ كتب الطبقات والتراجم قد تكشف عن روافد أخرى لنشأة التجسير العلميّ وتطويره في مستوى العلاقات العلميّة بما أفرزته من نتاجات في التأليف تفيض على تدوين عناوينها، فما بالنا بدرسها وتحليلها. وإنّ اختيار مصنّف من أهمّ ما كُتب في الهند في علم التراجم واختباره لا من جهة تناوله لِسِيَر أعلام يصطفيهم المصنِّف وفق مقاييس يصرّح بها أو لا، وإنّما من جهة شهادته على عصور عاشها هؤلاء الأعلام المنتخبون تميّزت بمحاولات جادّة في بناء جسور علميّة بين حضارة العرب وحضارة الهند. وهذه الشهادة سيكون النظر فيها مبنيّا على تقصّي المفاصل الزمنيّة التي تمثّل، بشكل أو بآخر، نقلة في مدار التقابس العلميّ وتوليد روابط أساسها التعاطي المعرفيّ. وهذه الورقة العلميّة لا تستهدف التنظير لمسألة التجسير العلميّ كما عبّر عنه الاستعراب الهنديّ، وإنّما تتغيّى اختبار فرضيّة انبناء جسور المعرفة بين بلاد العرب وبلاد الهند وفق محطّات ومجالات معرفيّة بعينها حُظيت باحتفاء علماء الهند سيحاول البحث الوقوف عليها. سيكون هذا العمل البحثيّ في مدوّنة تمثّلها موسوعة في علم التراجم مختصّة بعلماء الهند، وصنّفها علَم من أعلام الهند

---

[1] هذا مقال شاركت به في الملتقى الدوليّ الهنديّ العربيّ الأوّل(عن بعد)، عن مركز ضياء للمؤتمرات والأبحاث– المغرب، وقسم اللغة العربيّة بالجامعة الملّيّة الإسلاميّة – نيودلهي، يوميْ 24–25 أكتوبر 2020.

المعروفين بالتعاطي المعرفيّ تأليفا وتدريسا وتثقيفا. تلك هي **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر** لصاحبها عبد الحيّ الندويّ.

خطّة البحث، إضافة إلى المقدّمة والخاتمة، تتكوّن من أربعة مراكز اهتمام كبرى قابلة للتفريع الداخليّ. وهي على التوالي: التأطير المعرفيّ ومراحل التجسير العلميّ–العربيّ–الهنديّ ثمّ مجالاته ثمّ أبعاده.

وأمّا إشكاليّة هذا البحث فهي: إلى أيّ حدّ يمكن أن يجيب مصنّف **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر** على سؤال التجسير العلميّ العربيّ–الهنديّ بمراحله التاريخيّة ومجالاته المعرفيّة وأبعاده الحضاريّة؟

أوّلا: التأطير المعرفيّ

يعدّ التأطير المعرفيّ اقتضاء معرفيّا منهجيّا لكونه يسعى إلى إقامة عقد اتّفاقيّ معرفيّ بين الباثّ والمتلقّي تسييرا لعمليّة سبر المسألة وتيسيرا لعمليّة التلقّي وضمانا لسلامة الفهم. يتناول هذا القسم الأوّل التعريف بمسألتين: الأولى تتّصل بالمصطلح. والثانية تتعلّق بالمدوّنة التي عليها يستند البحث ومنها يمتح.

(1) المصطلح: يتمّ تسريح النظر هنا في لفظين اثنين لبيان المفهوم وتقريب دلالته المباشرة قبل المضيّ قدما في الرصد المعرفيّ. هذان اللفظان هما: الاستعراب والتجسير.

أ– الاستعراب: هذا المصطلح، إضافة إلى كونه مشتقّا لغويّا عربيّا أصيلا، هو حضاريّ بالأساس. وهو يحيل على حقل معرفيّ مادّتُه العلميّةُ: العربيّةُ لغة وأدبا وحضارة. له صلة بالاستشراق الذي يدرس حضارات الشرق. ولكنّه يتجاوزه بدراسة الحضارة العربيّة–الإسلاميّة في الغرب الإسلاميّ، أيضا. يضاف إلى ذلك أنّ الاستعراب لا يهتمّ من حضارات الشرق الكثيرة بغير العربيّة–الإسلاميّة منها. وقد عرفت الشعوب التي تعاطت مع الحضارة العربيّة وتعرّفت على لغتها وآدابها وفنونها وعلومها هذا المصطلح الحضاريّ. وأصبح مصطلح الاستعراب متداولا منذ وقت مبكّر مثل الاستعراب الروسيّ واليابانيّ والآسيويّ والإسبانيّ والإنجليزيّ والفرنسيّ والألمانيّ... الخ[1]. نودّ أنّ نؤكّد أنّ الاستعراب ليس سوى مصطلح علميّ حضاريّ. ومن هنا يكون المستعرب من غير العرب الدارس لحضارة العرب شرقا وغربا. وبهذا يكون

---

[1] انظر: *حركة الاستعراب الإسباني والاهتمام بالتراث العربي:https://www.diwanalarab.com

*مارك . إم. جيكان استعراب بولونيّ:https://aljadeedmagazine.com

* وجهة نظر الاستعراب الفرنسيّ:https://books.google.tn/books/about/

* تاريخ الاستعراب الروسي:https://www.fisalpro.net/?p=290

* الاستعراب الروسي هل خدم قضايانا الثقافية؟https://www.alukah.net/culture/0/61637/

* المستعربون الإنجليز سبحوا في بحر من المعرفة والإمبريالية

https://archive.aawsat.com/details.asp?article=217848&issueno=9210

* "ثورة العشرين": من وجهة نظر الاستعراب الياباني:https://www.alaraby.co.uk

* مجلّة الاستعراب الآسيويّ:https://fliphtml5.com/vuvs/tdcz

الاستعراب الهنديّ ذلك الحقل المعرفيّ العربيّ الاسلاميّ لغة وأدبا وحضارة الذي تعاوره علماء الهند تعرّفا وتعريفا، بحثا أوتأليفا، اهتماما أواختصاصا. ومعلوم أنّ التوجّه هنا إلى عمليّة التجسير رأسا. فما التجسير؟

ب– التجسير: لا شكّ أنّ هذا المصطلح من الصيغ المصدريّة في اللغة العربيّة. وليس هذا ما يعنينا هنا. إنّما المراد به الدلالة الحضاريّة. فالتجسير، في أبسط معانيه، هو إقامة الجسور. فإذا وصف بالعلميّ أصبح المقصود بالجسور ما كان موظّفا توظيفا علميّا[1]. وليست الجسور هنا تلك الواصلة بين شعب التعليم أو الدراسات البينيّة(Interdisciplinary Studies) أو حتّى بين المؤسّسات الجامعيّة في البلد الواحد. وإنّما المعنيّ بالنظر هنا هو إقامة الجسور العلميّة الحضاريّة، تلك التي تصل حضارة بأخرى عن طريق المشغل العلميّ. وما يعنينا هنا هو ما بذله المضطلعون بمشغل الاستعراب الهنديّ من جهود رفيعة المستوى في إطار الترابط الحضاريّ العلميّ بين حضارتين عريقتين: الهنديّة والعربيّة–الإسلاميّة. ومن المهمّ هنا تأكيد الاشتغال في مدوّنة معيّة هي موسوعة في علم التراجم. فمن المصنِّف؟ وما المصنَّف؟

(2) المدوّنة: المصنّف والمصنّف

ليس من الهيّن اختيار مدوّنة تستجيب، في الآن ذاته، لمركز الاهتمام في ورقة البحث هذه، وللحيّز النصّيّ والزمانيّ لمثل هذا البحث. لذلك كان انتخاب مصنّف بدا لنا، رغم ما يزخر به النتاج الاستعرابيّ الهنديّ العلميّ من مدّخرات آن أوان الاحتفاء بها وإيلائها ما هي به جديرة من تثمين واعتبار، بدا لنا ذا أهميّة خاصّة نتبيّنها لاحقا.

أ– المصنِّف: يعدّ صاحب **نزهة الخواطر** من أعلام الهند المبرّزين خلال القرن الرابع عشر الهجريّ، العشرين الميلاديّ. ويذهب البعض إلى أنّ جدّه الأوّل عربيّ استقرّ في الهند. ومهما تكن درجة المصداقيّة في ذلك، فإنّه بالإمكان القول إنّ عبدالحي بن فخر الدين الندويّ(ت1341هـ/1923) هنديّ المولد والنشأة والانتساب. وهو بمعيار العلم علاّمة هنديّ. ويعرف، اختصارا، بعبد الحي الحَسنيّ وبابن خلكان الهند نظرا لتميّزه في علم التراجم. أهمّ ما له ممّا يفيد البحث ويتقدّم به نورده في نقاط خمس. تتمثّل النقطة الأولى في أنّه ذو تكوين علميّ موسوعيّ. فقد جمع بين علوم اللغة والفقه والأدب والطبّ علما وممارسة. وتتمثّل النقطة الثانية في أنّه صاحب تآليف متنوّعة المجالات، لا سيّما تلك التي تندرج في مشغل الاستعراب

---

[1] ويتجاوز ما جاء به كلّ من الأمريكيّين: كوك وبراون في نظريّة تجسير المعرفة التي تُعنى بسدّ الثغرات المعرفيّة من خلال إقامة الصلة بين النظريّ والإجرائيّ، مثلا . انظر:

Cook, Scott D. Noam & Brown, John Seely, ***Bridging Epistemologies: The Generative Dance Between Organizational Knowledge and Organizational Knowing***, 1999. Organization Science, 10 (4), 381-400 (Haikudeck.com)

الهنديّ، مثل **نزهة الخواطر**، مدوّنة هذا البحث، و**الهند في العهد الإسلاميّ** و**الثقافة الإسلاميّة في الهند**. والثالثة كونه ألّف باللغتين العربيّة والأرديّة. فكانت الإفادة، تبعا لذلك، مزدوجة. إذ سافرت مصنّفاته شرقا وغربا. وقرأ له العربيّ والهنديّ كلاهما. وله، كذلك، تآليف في الحديث والفقه والتاريخ، ومجموعة رسائل مدارها على مسألتيْ التعليم الدينيّ والإصلاح الاجتماعيّ. والنقطة الرابعة أنّه ذو فكر إصلاحيّ. فقد عايش حقبة تميّزت بالاضطراب على مختلف المستويات: السياسيّ والاجتماعيّ والفكريّ. وأمّا الخامسة فموصولة بإحدى أهمّ المهامّ التي نهض بها. إنّها مهمّة التدريس. فقد انقطع لتدريس الحديث النبويّ الشريف في سنواته الأخيرة، بعد أن كان اتّجه، سنوات، نحو تدريس القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب والطبّ[1]. وكان إضافة إلى ذلك قد التحق بجمعيّة للعلماء المجدِّدين موسومة ب**حركة ندوة العلماء** في مدينة "لكنهؤ" ليديرها أعواما.

ب– المصنَّف: هو مؤلّف ضخم الحجم. نُشر في ثمانية مجلّدات استغرقت من كاتبها ثلاثين عاما. ومجال اختصاصه العلميّ هو علم التراجم. وقد تُرجم فيه لعدد معتبر من أعيان الهند وعلمائها بلغ، على وجه التحديد، 4404 عالم. ومن مزايا هذا المصنّف أنّ المنهج فيه أقيم على انتخاب الوقائع القابلة للتحقيق، إذا ما روجعت في مؤلّفات مختصّة، وهي إلى جانب ذلك تفضي إلى حقائق مطلوبة لذاتها. وهذا ما جعل المصنّف، في اعتقادنا، يسلم من أن يختلط فيه الغثّ بالسمين. وهذا، بناء على ذلك، ما من شأنه أن يسعفنا في رصد الحركة العلميّة التي وصلت حضارة الهند بحضارة العرب نشأة وتطوّرا وانعكاسا.

وسم عبد الحي بن فخر الدين الندويّ مصنّفه المقصود بالنظر، ب**الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمّى بنزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**[2]، وهو عنوانه الكامل. أمّا العنوان الذي اشتهر به فهو **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**. وربّما اختزل في **نزهة الخواطر** أو **النزهة**. اختصّ الجزء الأوّل بتراجم علماء الهند وأعيانها من القرن الأوّل إلى القرن السابع الهجريّ. والثاني بالقرن الثامن الهجريّ. والثالث بالقرن التاسع الهجريّ.وهكذا على الترتيب وصولا إلى الجز الثامن الذي تضمّن الأعلام والأعيان في القرن الرابع عشر الهجريّ[3]. وممّا قيل في تثمينه أنّه "جمع من التراجم ما لم يجمعه كتاب غيره. فهو يغني في هذا الباب عن كلّ كتاب، ولا يغني عنه كتاب"[4]. والكلام لعليّ الطنطاويّ.

---

[1] موقع هنداوي: https://www.hindawi.org/contributors/48649709/

[2] النسخة المعتمدة هي: الندوي، عبد الحي بن فخر الدين، **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمّى بنزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**، تهذيب: محمّد إقبال الأنصاريّ الندويّ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت–لبنان، 1420هـ/1999م، ط1.

[3] والملاحظ أنّ الأجزاء متفاوتة من حيث عدد التراجم فيها. فهي على التوالي: (ج1: 141/ج2: 298 /ج3: 245 / ج4: 592 /ج5: 760/ ج6: 774/ ج7: 1031/ ج8: 568).

[4] **نزهة الخواطر**، م. س، ص6.

ثانيا: مراحل التجسير العلميّ العربيّ–الهنديّ

إنّ محاولة إيجاد محطّات كبرى شهدها الاستعراب الهنديّ وهو يخوض عمليّة التجسير العلميّ، من خلال **نزهة الخواطر**، ينبغي أن تخضع لمعيار حضاريّ. ذلك أنّ النظر في هذا القسم الثاني من البحث لا يتعلّق بالتّتبّع التاريخيّ الذي يتعقّب الحدث ويتوسّل المؤشّر التاريخيّ. وإنّما يرمي إلى إيجاد محطّات كبرى شهدها هذا الضرب من الاستعراب وهو يستهدف عمليّة بناء روابط علميّة بين حضارتين عريقتين: حضارة الهند ونظيرتها عند العرب والمسلمين. وقد بدا لنا من الممكن تقسيمها بشيء من التنسيب إلى ثلاث مراحل. وهي على التوالي: مرحلة الاكتشاف ومرحلة النبوغ ومرحلة التصحيح. لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ هذه المراحل آخذ بعضها برقاب بعض، وأنّها قد تتواشج في بعض الفواصل الزمنيّة. معنى ذلك أنّه يمكن أن نعثر على بعض الجهود في التصحيح في المرحلة الأولى، مثلا.

(1) مرحلة الاكتشاف:

نقتبس ممّا قاله عبد العليّ الحسنيّ نجل المؤلّف الأكبر وأمين ندوة العلماء العامّ في صلة الهند بالإسلام، ما يلي: "هبّت عليها نفحة من نفحات الإسلام في فجر تاريخ الإسلام وأدركتها العناية الإلهيّة في القرن الأوّل... وأودع الإسلام ثراها ودائع لا تضيع من علماء المسلمين الكبار"[1].

لقد انجذب مسلمون كثيرون إلى بلاد الهند واتّخذوها موطنا لهم ولخلفهم من بعدهم. فانتشر الإسلام سلوكا وتعاملا واللغة العربيّة سماعا وممارسة. في هذه المرحلة بدأ المتطلّعون إلى المعرفة والراغبون في الإطّلاع على الجديد والتائقة نفوسهم إلى الدين الحقّ، من أهل الهند، بدأ هؤلاء في اختبار ما يرد عليهم من بلاد العرب والمسلمين في مختلف المعارف العلميّة واللغويّة والدينيّة والأدبيّة بما في ذلك الشعر والتأليف. وتنافس أهل الهند لا سيّما من كانوا على ملّة الإسلام في التعاطي مع مدّخرات المعرفة عند العرب. فنقلوا مصنّفات وحقّقوا أخرى وشرحوا ووضعوا الحواشي وما إلى ذلك من أشكال الإقبال على النتاج العلميّ عند الشعوب الأخرى وخاصّة تلك التي تحمل مشروعا حضاريّا مؤسّسا على العلم ومستهدفا صلاح الإنسان كيفما كان. ومن أعلام الهند الذين أُغرموا بالشعر العربيّ، وجرّبوا نظمه، نذكر مثلا، أبا عطاء السنديّ، وهو من رجال القرن الثاني الهجريّ، الذي ظلّ يتفانى في النظم وتجويده حتّى عُلم أنّه شاعر بلسان العرب. وأمذا أبو معشر نجيح بن عبد الرحمان(ت170هـ)، فقد اختبر قدراته في التأليف. فجاء بمؤلّفه **المغازي**. فحاز بين قومه لقب فقيه. وبمثل هذا الرعيل الأوّل عرفت بلاد الهند الملامح الأولى للتجسير العلميّ مع حضارة العربيّ وبدأت تثمر علماء في اختصاصات معرفيّة متنوّعة. وبدأ الاستعراب الهنديّ، منذ ذلك الحين يشكّل نماذجه الأولى بتكلّم العربيّة والقراءة بها والكتابة فيها.

---

(1) م. ن، ص7.

(2) مرحلة النبوغ

وهي تلك المرحلة التي تجاوز فيها المستعرب الهنديّ الاتّكاء على النموذج العربيّ الإسلاميّ. ودشّن انطلاقته باتّجاه الإبداع الذي يحمل البصمة الهنديّة. وأضحت بلاد الهند في هذه المرحلة من تاريخها الحضاريّ مستعدّة لتجني ثمار الجهود الاستعرابيّة التي ابتدأت بالبحث والتنقيب في ما وصلها من علوم عربيّة إسلاميّة وانتقلت إلى الإنتاج العلميّ الذي لا يخلو من خصوصيّة هنديّة. ظهر إذن نوابغ في شتّى فضائل المعرفة. وأُلّفت المؤلّفات ذات الصلة باللغة العربيّة إمّا ترجمة منها وإليها وإمّا إجراء قراءات على مؤلّفات عربيّة للإضافة أو التعديل أو الاعتراض والنقد. المهمّ أنذ حركة علميّة هنديّة إسلاميّة بدأت ترى النور. حوت نزهة الخواطر مادّة معرفيّة ثريّة في هذا الشأن. ولا يتأتّى للباحث المفرد أن يُلِمّ بكلّ الأعلام الهنود الذين نبغوا في علم من العلوم أو كانوا موسوعيّين بجمعهم لمختلف الفنون والعلوم. ولنذكر على سبيل التمثيل: علي بن القوام المشهور بعلي عاشقان السراي ميري(ت955هـ) والشيخ عبد الباقي(الباقي بالله) النقشبندي الدهلوي[1](ت1014هـ)، الذي "من مصنّفاته: **الرسائل البديعة** و**المكاتيب العليّة** و**الأشعار الرائقة**..."[2]. ولئن كان النبوغ العلميّ مقترنا بالرجال في الغالب فإنّه متى برزت فيه بعض الفاضلات دلّ على رواج المشغل العلميّ وتطوّره. ومن ثمّ أمكن انتظار مخرجاته. وفي ما نحن بصدد من أحوال التجسير العلميّ العربيّ الهنديّ لنا أن نقرّ بأنّ النبوغ العلميّ في هذه المرحلة لم يقتصر على الرجال. فقد برزت كوكبة من فضيلات النساء البارعات في العلم والدين والسياسة والأدب وإنشاء الرسائل. ومنهنّ جانان بيكَم بنت عبد الرحيم بيرم خان ملكة بهوبال الشاعرة وصاحبة التفسير(ت 1070هـ) ونواب شاهجهان بيكَم"(ت1319هـ)[3]، صاحبة **الديوان** وكتاب **تهذيب النسوان**.وقد عرفت نواب أكثر ما عرفت بالمجال السياسيّ حيث تقدّمت "على أقرانها في الرئاسة والسياسة... وامتازت بينهم في القدرة على ترجمة القرآن، وتحرير الرسائل الدينيّة، وتقرير المسائل الدوليّة"[4]. برزت نواب شاهجهان في ميدان الاهتمام بالمنشآت العلميّة التي لا تواصل علميّ دونها "وأحييت المدارس العلميّة وبنت المساجد العظيمة... وأسّست المدرسة الجهانكيرية..."[5]. وبرزت كذلك في ميدان البذل المادّيّ الذي لا يقوم عمل إلاّ عليه. والملاحظ أنّ هذا الرفد الماليّ كان لأهل الفضل داخل الهند وخارجها. ولئن كان أهل الفضل من الهند هم أهل العلم فيها وأصحاب الروابط العلميّة بعالم الإسلام الرحب، فإنّ أهل الفضل من خارج الهند كانوا من بلاد إسلاميّة كذلك. لقد قدّمت هذه العالمة الهنديّة النابغة في علوم الدين نموذجا لبناء علاقات في تمويل العلم

---

[1]ترجمته عدد 316. انظر: **نزهة الخواطر**، م. س، ج5، صص551-552.

[2] م. ن، ج5، ص552.

[3]ترجمتها عدد 177، انظر: م. ن، ج8، صص1245-1246.

[4] م. ن، ج8، ص1245.

[5] م. ن، ج8، صص1245-1246.

وأهله. فساهمت عمليّا في تأسيس التجسير العلميّ وتجذيره. يقول صاحب **النزهة:** "وأسبلت ذيول المنح والعطايا على أهل الفضل من أهل الهند وأهل الحرمين الشريفين واليمن والعراق والشام وغيرها من البلاد. وأعطت الطلبة الألوف من المصاحف والكتب الدينيّة... وأوقفت مالا عظيما على طبع المصاحف والتفسير واللغة وغيرها من العلوم والفنون"[1].

(3) مرحلة التصحيح

لا خلاف في أنّ المصادر التي اعتمدها الندويّ في كتابه نزهة الخواطر من نوع **فتوح البلدان** للبلاذريّ و**الجمهرة** لابن الكلبيّ و**معجم البلدان** لياقوت الحمويّ و**أسد الغابة** لابن الأثير، كان لها أثرها في توجيه النتاج الاستعرابيّ الهنديّ وجهة نقديّة تصحيحيّة بعيدة المدى. ولكنّ هذه الروافد الشرقيّة لم تَحُل دون نتاج استعرابيّ هنديّ يحمل في طيّاته بعض الخصوصيّات. لقد ردّ العلماء على تحريف الغلاة وانتحال المبطلين. وظهر أعلام كثر في هذا المضمار كانوا مجادلين مصحّحين في مجال العقيدة. نضرب مثال الشيخ شيخ الإسلام والمسلمين أحمد بن عبد الأحد بن زين الدين السرهندي(ت1034هـ)[2]، صاحب **الرسائل الخالدة** والحائز على لقب "مجدّد". فقد نتجت بفضل ردوده على المبتدعين والدهريّين حركة علميّة جداليّة داخل الهند وخارجها. وقد شهدت بعض ملامحها بلاد الحرمين ومصر كذلك. وأمّا صيته فقد راج في كثير من بلاد الإسلام الواسعة "فلا ترى ناحية من نواحي المسلمين في بلاد الهند وخراسان وما وراء النهر من بلاد الترك والتتر إلى أقصى ثغر بالمشرق ثمّ أرض العراق والجزيرة وبلاد الحجاز والشام وقسطنطينة... إلى أقصى المغرب مثل فاس وغيرها"[3].

تناولت ردوده على أهل الإلحاد والغلاة مسائل في الاعتقاد. وقد دفع هذا الجدل العلميّ حول كتاباته إلى تعريبها. ومن المعلوم أنّ الإقبال على نقل النصوص إلى اللغة العربيّة يندرج ضمن رؤية معرفيّة شموليّة تتجاوز مجرّد التعارف على الآخر إلى تصحيح بعض المسارات الفكريّة التي شكّلت انزياحا عن العقائد الصحيحة المشتقّة من النصّ القرآنيّ والحديث النبويّ الصحيح. يقول النملة في الترجمة التي ترحل بواسطتها المعارف بين الأمم عامّة: "تعدّ شكلا فاعلا من أشكال التجسير في مسيرة حوار الأمم المتعاقبة والمتعاصرة والمتلاحقة"[4].

---

[1] م. ن، ج8، ص1246.

[2]ترجمته عدد 70. انظر: م. ن، ج5، صص 479-482.

[3] م. ن، ج5، ص480.

[4]النملة، علي بن إبراهيم، **التجسير الحضاريّ بين الأمم في ضوء تناقل العلوم والآداب والفنون**، دار الآثار الإسلاميّة، الكويت، ط1، 1430هـ/2009م، ص12.

أمّا العلوم التي تضلّع فيها السرهندي وأكسبته معرفة دقيقة رشّحته للردّ على المخالفين، فهي متنوّعة. جاء في **النزهة** "وكان يدرّس في علوم شتّى من الفقه والأصول والكلام والتفسير والحديث والتصوّف. وربّما يشتغل بالهداية والبزدوي وشرح المواقف والبيضاوي والمشكاة والبخاري... "[1].

ومن تجلّيات هذا الجدل الدينيّ وما شهده من تطوّر ما كان من علميْن أحدهما من الهند، وهو فرخ شاه السرهندي(ت1122هـ)، والآخر من بلاد الشام. يقول الندويّ: "ثمّ تصدّى لشرح كلماته الطيّبات الشيخ عبد العليّ النابلسيّ الحنفيّ الدمشقيّ في رسالة **نتيجة العلوم ونصائح علماء المرسوم**، ألّفها سنة 1112هـ. ثمّ تصدّى للردّ على البرزنجي الشيخ فرخ شاة بن محمّد سعيد السرهندي[2]، في رسالة سمّاها **كشف الغطاء عن وجوه الخطاء**"[3]. ولا عجب في أن يسلك طريق الردّ بالحجّة وهو الذي "مهر في سائر الفنون لا سيّما الفقه والحديث والتصوّف"[4]، ووترك مصنّفات يتّضح من خلال عناوينها أنّ قد ورث عن جدّه ملكة النقد والاحتجاج على أهل الهوى وبيان جملة من الحقائق في ما يخصّ العقائد عامّة والنبوّة خاصّة. جاء في **النزهة** "له رسائل في الفقه والحديث وأخرى في الذبّ عن جدّه الإمام المجدّد... منها القول الفاصل بين الحقّ والباطل وكشف الغطاء... ورسالة في الحقيقة المحمّديّة...".

وبدا واضحا أنّ أحمد بن عبد الأحد بن زين الدين السرهندي قد دشّن هذا الباب في الذبّ على حرمة الإسلام. ذلك أنّ الذين جاؤوا بعده علماء محقّقون. برز منهم الشيخ وليّ الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي(ت1176هـ)، حكيم الإسلام، وصاحب **حجّة الله البالغة** و**إزالة الخفاء**. وبرز في مجال الدعوة والجهاد السيّد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد(ت1246هـ) وله في ذلك كتاب. وله كتاب آخر موسوم ب**الصراط المستقيم**. بل إنّ لقب حجّة الإسلام ظهر وحظي به من كانت له أبحاث ومواقف في دعوة التوحيد والسنّة والجهاد. والمثال في ذلك الشيخ إسماعيل بن عبد الغنيّ(ت1246هـ).

ومن الذين ذاع صيتهم في الردّ على الشبهات نذكر المولوي محمّد حسين البطالوي(ت1338هـ) ترجمته عدد 454. فقد "أنشأ مجلّة شهريّة سمّاها **إشاعة السنّة**. وكان يبحث فيها عن مذاهب المبتدعة ويردّ على السيّد أحمد بن المتّقي الدهلوي، وكذلك يردّ على مرزا غلام أحمد القادياني، وكذلك عبد الله الجكرالوي..."[5]. وبهذا يكون الاستعراب الهنديّ قد تألّق في مجال التصحيح العقديّ الإسبلاميّ. ولم

---

[1] **نزهة الخواطر**، م. س، ج5، ص480.

[2] ترجمته عدد 412. انظر: م. ن، ج6، ص781.

[3] م. ن، ج5، ص482.

[4] م. ن، ج6، ص781.

[5] م. ن، ج8، ص1359.

يجانب الصواب من قال: "أولئك الذين رجحت بهم كفّة الهند في الجهاد والتجديد على العالم الإسلاميّ في العصور الأخيرة"[1].

ثالثا: مجالات التجسير العلميّ العربيّ–الهنديّ:

يسعى البحث في هذا الموضع إلى محاولة تجميع المادّة الغالبة على النتاج الاستعرابيّ الهنديّ من خلال **نزهة الخواطر**، وفق مجالات معرفيّة، مع الوعي بكونها تتقاطع فيما بينها. ولكن قبل البحث في هذه المجالات يجدر بنا الانتباه إلى طريقة الندويّ صاحب **النزهة** في إدراج الإرهاصات الأولى لهذا التجسير. لقد استهلّ الندويّ كتابه بالطبقة الأولى في من قصد الهند في القرن الأوّل الهجريّ[2]. ومن هنا يشرع في تبيّن الخيوط الأولى التي بدأت تشكّل نسيج العلاقات بين عالمين مختلفيْن ثقافيّا عريقيْن حضاريّا. ولا يفوتنا التحقيب الهجريّ الذي توسّله الندويّ الذي يبرهن على قناعة المصنّف بطبيعة هذا التجسير. فهو وإن تنوّعت مجالاته يظلّ مشدودا إلى التعاليم الإسلاميّة. أمّا الطبقة الثانية فقد جعلها في أهل الهند وفي من قصدها من أهل القرن الثاني. وكانت الطبقة الثالثة في أعيان القرن الثالث. ثمّ جاءت الطبقة الرابعة في أعيان القرن الرابع من أهل الهند. وكذا الحال بالنسبة إلى الطبقة الخامسة والسادسة اللتين يقابلهما القرنان الخامس والسادس الهجريّان، فقد كانتا في أعيان من أهل الهند. ثمّ يختلف الأمر بدءا من الطبقة السابعة التي ستكون في أعيان القرن السابع: ويكون فيها ترتيب الأعلام وفق الألفباء، بدءا بحرف الألف وصولا إلى حرف الياء. ويتواصل النظام ذاته إلى الجزء الثامن. ينمّ هذا التنظيم عن رؤية حضاريّة حصيفة بَنَت المادّة المعرفيّة وفق مراحل ثلاث: الثقافة حيث بدأ التلقّي، فالمثاقفة حيث سرى التبادل المعرفيّ الواعي من الجانب، فالتثاقف حيث طفق التأثير يفعل فعله في الجانبين. لقد تلقّى أهل الهند ثقافة الآخر وتبادلوها معه ثمّ أضحت بين الفريقين سارية في لاوعيهم. وهذا ما تعكسه مجالات التجسير العلميّ. وهي متنوّعة وذات تطوّر مخصوص يتساوق تماما مع المراحل الحضاريّة الثلاث المتقدّمة.

(1) المجال اللغويّ: وهو من المجالات الأولى التي اهتمّ بها الاستعراب الهنديّ منذ بدايات التواصل مع الآخر العربيّ. ولا عجب في ذلك فاللغة هي أداة الاتّصال والتواصل والبناء المعرفيّ. وقد استمرّ الأمر كذلك في المجالات التي ظلّت مرافقة للاستعراب الهنديّ في تطوّره. ويبدو أنّ الاهتمام باللغة العربيّة في بلاد الهند كان متنوّع الأشكال. فقد كان تدريسها في المساجد وفي المدارس التي أنشئت في الغرض. وكانت المحاولات الأولى في التأليف بها. ومن المؤكّد أنّ الاحتفاء باللغة العربيّة كان قد مسّ مختلف مستوياتها باعتبارها لغة النصّ القرآنيّ. لذلك أُثرت مؤلّفات في ألفاظ اللغة العربيّة وفي نحوها وصرفها وبلاغتها

---

(1) م. ن، ص8.

(2) م. ن، صص31-37.

وعروضها، وكذلك في مقوّماتها النثريّة والشعريّة. ومن الأعلام في المجال اللغويّ الشيخ حسن بن محمّد الصغاني(ت660هـ)[1]. من مصنّفاته **العباب الزاخر**. وهو "في اللغة، في عشرين مجلّدا... وترتيبه كـ**صحاح الجوهريّ**"[2]. ومنهم السيّد مرتضى الزبيديّ(ت1205هـ) صاحب **تاج العروس**. ومنهم الشيخ أوحد الدين البلكرامي(ت1250هـ) صاحب **نفائس اللغات ومفتاح اللسان**[3]. ومنهم القاضي عبد المقتدر الكندي(ت791هـ) صاحب القصيدة اللاميّة[4]. ومنهم الشيخ فضل حقّ الخير آبادي صاحب **القوافي والتجنيس**، وهو من أعلام القرن الثالث عشر(ت1243هـ)[5]. وقد انفرد بالإمامة في صناعة الميزان. إنّ هؤلاء المحقّقين الذين تسنّموا مرتبة الإمامة في علوم اللغة "لهم منّة على الناطقين بالضاد والمشتغلين بعلوم الدين واللغة في أنحاء المعمورة"[6]. فهم رحّلوا الذخيرة اللغويّة العربيّة. فوفّروا لأهلهم بالهند بفضل جهودهم، فوائد المعارف اللغويّة العربيّة وفرائد الفصحاة فيها. وأوجدوا، بناء على ذلك، مسالك بحثيّة جديدة خصبة مخصبة.

(2) **مجال العلوم النقليّة**: إنّ تقسيم العلوم إلى نقليّة وعقليّة يؤخذ هنا على المتعارف عليه دون الدخول في تفاصيل الجدل الذي دار حول المسألة. ذلك أنّ علوم العقل ليست خلوا من النقل وكذلك علوم النقل لا تخلو من عقل. فلا يخلص أيّ من الضربين من احتواء للآخر واشتمال عليه. والمعتمد هنا هي علوم الكتاب والسنّة النبويّة الشريفة. وليس من العجيب أن يتّجه أعلام الهند ناحية هذه العلوم. فالنصّ المؤسّس لهذا الإسلام، قرآنا وسنّة، يدعوا إلى تدبّر ما جاء فيه من تعليم معرفيّ عامّ وتشريع علميّ خاصّ. وقد تفرّعت هذه العلوم النقليّة عند علماء الهند تماما مثلما تفرّعت عند نظرائهم من العرب. فكانت التفاسير والشروح والحواشي، وما إلى ذلك ممّا اقتضاه التعمّق في النصّ وفهم دلالاته ومقاصده.

ومن الأعلام المبرّزين في هذا المجال العلميّ: الشيخ علي بن حسام الدين المتّقي(ت975هـ) الذي ألّف **كنز العمّال** والعلاّمة صاحب **اللمعات في شرح مشكاة المصابيح** عبد الحقّ بن سيف الدين الدهلوي(1052هـ)، والشيخ أبو الحسن السندي الكبير(ت1138هـ) صاحب **الحواشي على الكتب الحديثيّة الستّة**، والشيخ سلام الله بن شيخ الإسلام(ت1229هـ) الذي صنّف **المحلّى في شرح الموطّإ**، والشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي(ت1239هـ) صاحب **فتح العزيز في تفسير القرآن الكريم والفتاوى الشهيرة**. ولا ينبغي أن ننسى الشيخ عبد القادر بن الشيخ ولي الله(ت1230هـ) الذي ترجم

[1] ترجمته عدد25. انظر: م. ن، ج2، صص91-93.
[2] م. ن، ج2، صص92-93.
[3] ترجمته عدد152. انظر: م. ن، ج8، ص929.
[4] ترجمته عدد137. انظر: م. ن، ج3، ص171.
[5] ترجمته عدد687. انظر: م. ن، ج8، ص1063.
[6] م. ن، ص10.

القرآن الكريم إلى الأرديّة بانيا جسرا متينا بين أهل الهند والقرآن الكريم. عنوان كتابه **موضّح القرآن**. وهكذا يظهر لنا جليّا ما كان من أعلام الهند من جهود كبيرة ودقيقة فيما يتّصل بالنصّ المؤسّس وما تفرّع عن علومه من مذاهب. وقد برز اهتمام المستعرب الهنديّ بعلم الحديث. ورغم أنّ هذا الاهتمام لم يكن إلاّ في القرن العاشر، فإنّه نبغ فيه علماء وبرّزوا حتّى قيل "انتهى إليهم تدريس هذا الفنّ والقيام بحقوقه حتّى أصبحت هذه البلاد مركزا لهذا الفنّ الشريف، يشدّ إليه الرحال ويضرب فيه أكباد الإبل"[1].

(2) **مجال العلوم العقليّة**: وتتبعه الفنون الحكميّة. وهو مجال دقيق من جهة لزومه لكلّ العلوم دون استثناء. إذ يدخل هذا الاختصاص العلميّ في باب المناهج المشروط اتّباعها في التعلّم والتعليم على حدّ سواء. ومن المقاصد المنتظرة من هذه العلوم تحقيق انتظام الفكر لدى المتعلّم وإقداره على تبيّن العلاقات بين المسائل المدروسة وتقدير مواضعها فضلا عن مواضيعها. وقد صنّف فيه القاضي محبّ الله البِهاري[2](ت1119هـ). **سلّمَ العلوم** في المنطق و**مسلّم الثبوت** في أصول الفقه و**الجوهر الفرد** في مبحث الجزء الذي لا يتجزّأ. وللشيخ رفيع الدين ابن الشيخ وليّ الله الدهلوي (ت1233هـ) في هذا الفنّ مؤلّفان **إبطال البراهين الحكميّة** و**رسائل في المنطق**. وأمّا الشيخ فضل إمام الخير آبادي(ت1243هـ) فقد ألّف **المرقاة في المنطق** وكذلك **تلخيص الشفاء للشيخ الرئيس**[3]. أمّا العلوم الرياضيّة وما إليها، فكان للمستعربين في بلاد الهند فيها باع محمود. فهذا العلاّمة تفضّل حسين اللكهنوي(ت1215هـ) صاحب الترجمة عدد 187 من **النزهة**، الذي "لم يكن في زمانه مثله في الفنون الرياضيّة"، حسب عبارة الندويّ، مشهود له في هذا المجال لما تركه من مصنّفات دالّة على تفرّده. فمن بين ما كتب "**شرح على مخطوطات إيلوينوس** و**شرح على مخروطات ديوبنال** و**شرح على مخروطات سمسن**. وله **رسالتان في الجبر والمقابلة**. وله **تعليقات على العلوم الدرسيّة** تدلّ على تبحّره في العلوم الحكميّة"[4]. ولم يكن ليحوز هذه المرتبة السنيّة لولا أنّه تعدّدت لغاته. فقد "تعلّم اللغة الإنجليزيّة واللاطينيّة. وأقبل على العلوم الرياضيّة إقبالا كلّيّا..."[5].

وهذا الشيخ محمّد أعلى التهانوي، وهو من رجال القرن الثاني عشر الهجريّ، يصنّف في باب علم الاصطلاح العلميّ **كشّاف اصطلاحات الفنون** الذي مازال إلى اليوم عمدة عند الباحثين باللسان العربيّ في مختلف العلوم والفنون.

---

[1] **نزهة الخواطر**، م. س، ص9.
[2] ترجمته عدد 466، انظر: م. ن، ج 6، ص793.
[3] م. ن، ص1063.
[4] **نزهة الخواطر**، م. س، ج7، ص941.
[5] نفسه.

رابعا: أبعاد التجسير العلميّ العربيّ–الهنديّ:

ليس من اليسير الإتيان على أبعاد الجهود الاستعرابيّة الهنديّة في التجسير العلميّ من خلال ما كاد كتاب **النزهة** أن يتفرّد به من تحقيقات دقيقة ظاهرها مجرّد تعريفات بالأعلام من خلال الترجمة لهم، وباطنها تشقيقات تجاربهم العلميّة، وتنقّلاتهم في طلب العلم وبثّه، وعلاقاتهم الداخليّة والخارجيّة، وجهودهم في الإصلاح، وإفاداتهم من العرب المسلمين الوافدين عليهم. ولا ريب في أنّ المادّة علميّة الكثيفة والمتنوّعة من شأنها أن تكون ذات أثر بيّن في أزمنة لا حقة لظهور **نزهة الخواطر**، وتداول العلماء له. إذ لا يعقل أن يكون هذا الكتاب بما تضمّنه من تراجم لأعلام رموز في شبه القارّة الهنديّة. ولما كان البحثُ في أبعاد تلك الحركة الاستعرابيّة الهنديّة المبكّرة التي برهن عليها كتاب **النزهة** بحثا حضاريّا من حيث طابعه ومتشعّبا من حيث مستوياته فإنّ هذه الورقة البحثيّة تحاول أن تمثّل لذلك كلّه من خلال اقتناص ما كان من تخطيط في مجال التأسيس العلميّ وما يتعلّق به من مباحث تربويّة لم تكن لتقف عند زمن إنجازها بل اخترقت الزمان والمكان، وكذلك ما كان لأعلام المشغل الاستعرابيّ من وقع في البعديْن الفلسفيّ والحركيّ. ولا يخفى علينا ما بين هذه الأبعاد من روابط. فليس ما بينها مجرّد تجاور بل توالد علّيّ ينشأ فيها اللاحق من السابق.

(1) البعد التأسيسيّ: ممّا يحسب لأعلام الهند أنّهم كانوا أهل فكر تأسيسيّ استشراقيّ. لقد أدركوا أهمّيّة تنظيم العمل وفق مؤسّسات ترعى ميدان فعلها بما فيها من قوانين ومقرّرات. وقد رصد الندويّ في موسوعته هذه جملة من المشاريع التأسيسيّة التي وإن تنوّعت أشكالها وتعدّدت غاياتها واختلفت وسائلها مكّنت العلاقات العلميّة بين أهل الهند ودول العرب والمسلمين من التطوّر والتجذّر. لقد تنوّعت المنشآت. فكانت المدارس والمعاهد والمطبعة والجمعيّات والدوريّات والندوات والمؤتمرات.

* **تأسيس المدارس:** ومنها **المدرسة العربيّة** وكذلك **المدرسة الكلّيّة بعليكره**. تُنسب الأولى إلى المولوي سميع الله خان الدهلويّ(ت1326هـ)"[1]. وتعدّ من أهمّ إنجازاته العمليّة. يقول صاحب **النزهة**: "وأسّس المدرسة العربيّة بدهلي سنة 1282هـ على نفقته... وكان شريكا غالبا في تأسيس **المدرسة الكلّيّة بعليكره** وعضدا قويّا للسيّد أحمد بن المتّقي الدهلوي"[2]. وهذه المدرسة الثانية تنسب إلى أحد أعلام الهند ورموز الإصلاح فيها. إنّه السير سيّد أحمد خان الذي جسّد في هذه المنشأة وما لحقها من منشآت، مشروعه التعليميّ، وعمل على تطويرها. يقول الندويّ: "واحتضن المدرسة التي أسّسها المولوي سميع الله خان باتّفاقه وتوجيهه للمسلمين بعليكره. أصبحت بعده بمدّة "الجامعة الإسلاميّة" سنة 1292هـ... واشتهرت باسم جامعة عليكرة الإسلاميّة"[3]. ومن المدارس كذلك:

---

[1] ترجمته عدد 163. انظر: **نزهة الخواطر**، م. س، ج8، ص1239.

[2] م. ن، ج8، ص1239.

[3] م. ن، ج8، ص1177.

– **المدرسة الإسلاميّة بديوباند:** التي لا تذكر إلاّ ويذكر خبر الشيخ محمّد قاسم النانوتوي"[1](ت1297هـ) الذي حين "كان ببلدة ميرنة. إذ أسّس الشيخ الحاج عابد حسين الديوبندي المدرسة الإسلاميّة بديوبند... "[2]. وقد تعدّى تأسيس المدارس الإسلاميّة بلاد الهند إلى خارجها. ومثال ذلك **المدرسة الصولتيّة** بمكّة المعظّمة التي أسّسها الشيخ رحمة الله الكيرانوي[3](ت1309هـ) صاحب **إظهار الحقّ** "سنة 1290هـ. وبارك الله فيها ونفع بها خلقا كثيرا. وتخرّج منها عدد كبير من العلماء والقضاة"[4]. وكان للفاضلات من الهند دور في هذا البعد التأسيسيّ. يقول الندويّ في العالمة الفاضلة نواب شاهجهان بيگم، المتقدّم ذكرها: "وأسّست **المدرسة الجهانكيريّة** على اسم أبيها بدار ملكه"[5]. ولم يكن تأسيس دور التعليم بمنعزل عن إنشاء المطابع التي سيكون لها فضل في ترحيل العلوم كثافة وسرعة.

* **تأسيس المطبعة:** نكتفي بذكر عيّنتين ورد ذكرهما في **نزهة الخواطر** متّصلتين بالنانوتوي:

– **المطبعة الأحمديّة:** ذكرت في ترجمة النانوتوي الذي"اشتغل في المطبعة الأحمديّة بدهلي للشيخ أحمد علي بن لطف الله السهارنبوري. وكان الشيخ في ذلك الزمان مجتهدا في تصحيح **صحيح البخاريّ** وتحشيته. ففوّض إليه خمسة أجزاء..."[6].

– **المطبعة المجتبائيّة:** يقول الندوي عن الشيخ محمّد قاسم النانوتوي: "وكان يسترزق بتصحيح الكتب في المطبعة المجتبائيّة لممتاز علي خان"[7].

* **تأسيس المؤتمر:** لا شكّ أنّ هذا النوع من الأعمال التأسيسيّة ينمّ عن بلوغ بعض أعلام من مسلمي الهند درجة معتبرة من الوعي بضرورة عقد اجتماعات دوريّة تطرح مسائل حيويّة تخصّ تقدّم البلاد وصلاح العباد. لكن ضمن أطر تنظيميّة ولجان تنسيقيّة وعن طريق محاضرات تطرح الأفكار وتناقش في أجواء من الحرّيّة والاحترام. إنّ مثل هذا الوعي لا يمكن أن تفعّله سوى المؤتمرات. يقول الندويّ متحدّثا عن السيّد أحمد خان: "وأسّس في سنة 1304هـ المؤتمر التعليميّ الإسلاميّ لمساعدة

---

(1) م. ن، ج7، ص1068.

(2) ترجمته عدد697، انظر: م. ن، ج7، صص1067-1068.

(3) ترجمته عدد 141. انظر: م. ن، ج8، ص 1228.

(4) نفسه.

(5) م. ن، ج8، ص1246.

(6) **نزهة الخواطر**، م. س، ج7، ص1067.

(7) م. ن، ج7، ص1068.

المسلمين في الاستفادة بالتعليم الحديث"[1]. وقد مثّل جسرا حقيقيّا بين الطوائف الهنديّة بالداخل وبينهم ونظراؤهم من علماء الإسلام من خارج الهند.

* **تأسيس ندوة العلماء:** لا تكاد الندوة تختلف عن المؤتمر إلاّ من جهة اختصاصها في مسألة معيّنة يتطارحها أهل الاختصاص. ولقد أسّس الشيخ محمّد علي الكانبوري[2] (ت1346هـ) الذي ذاع صيته بـ**رسائل في الردّ على النصارى** ندوة العلماء. جاء في **النزهة** إخبار عن المؤسّس والغاية من التأسيس: "وهو الذي أسّس ندوة العلماء سنة 1311هـ لإحياء المدارس العربيّة وإصلاح نظام الدرس ورفع النزاع بين الفرق الإسلاميّة... وأسّس أعضاء الندوة مدرسة عظيمة بمدينة لكهنؤ سنة 1317هـ. وهي التي اشتهرت بدار العلوم"[3]. وهو كذلك مؤسّس معهد ندوة العلماء في لكهنؤ.

إنّه بمثل هذه الإنشاءات قامت دولة العلم في الهند وشهدت عمليّة التدريس رواجا ونجاعة، وتوافد أهل الهند على هذه المنشآت ليتخرّجوا منها حاملين لواء المعرفة. ومن نتاج ذلك أنّ العلماء المعاصرين من الهند عامّة، والمشتغلين بحضارة العرب والمسلمين خاصّة، لا يكاد يأتي عليهم عدّ. إنّ لمؤسّسات العلم هذه دور وأيّ دور في التجسير العلميّ بين المسلمين داخل الهند وخارجها. فليست المؤسّسات المذكورة هنا سوى نماذج. إذ لم تخل بلاد الهند في مختلف أنحائها التي كان فيها المسلمون، من إقامة منشآت علميّة تحاكي التوجّه العالميّ العامّ في الإقبال على التجسير المعرفيّ الذي هو جزء من التجسير الحضاريّ لا بل إنّه أساسه الذي عليه يبنى. يقول النملة: "كانت هذه المراكز تمثّل جسورا لانتقال الحضارة الإنسانيّة وصقلها وتأصيلها إسلاميّا. ثمّ بعدئذ نشرها بين الأمم"[4].

(2) البعد الفلسفيّ: وهو بعد موسوم بسمة الإسلام، أي أنّه له خلفيّة إسلاميّة ومرجعيّة مشتقّة من القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة. إنّ تلك الحركة العلميّة التي ضجّ بها كتاب الندويّ هذا أنتجت فكرا مستنيرا ينافس تيّارات العصر الفكريّة. إذ يقدّم رؤية للعالم شاملة مبدؤها من بناء الذات الإنسانيّة. ولعلّ أفضل من مثّل هذا البعد الفلسفيّ هو الفيلسوف الهنديّ محمّد إقبال(ت1356هـ/1938م) الذي نطق شعره بفلسفته المؤمنة بحقيقة الإنسان. لقد وجدت فلسفته طريقها إلى قلوب الناس داخل الهند وخارجها. يقول عزّام: "وأوّل قصائده الرنّانة التي أُلقيت في جمعٍ حاشد قصيدته التي أنشدها في الحفل السنويّ لجماعة حماية الإسلام في لاهور "أنجمن حمايت إسلام" سنة 1899، وعنوانها "أنين يتيم""[5]. وهذه الجمعيّة من

---

[1] م. ن، ج8، ص1177.

[2] ترجمته عدد 471. انظر: م. ن، ج8، صص1368-1369.

[3] م. ن، ج8، صص1368.

[4] **التجسير الحضاريّ بين الأمم**، م. س، ص11.

[5]عزّام، عبد الوهاب، **محمّد إقبال سيرته وفلسفته وشعره**، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012، ص35.

المشاريع التي نهض لها السير سيّد أحمد خان حين استشعر الخطر المهدّد لمسلمي الهند"[1]. انظر كيف كان لذلك التأسيس أثره في استقطاب أهل الإبداع والفكر. لقد كان إقبال "ذا صلة دائمة بالكلّيّة الإسلاميّة بلاهور. وكذلك كان كثير الاهتمام بالجامعة المليّة في دلهي دائم الاتّصال بها"[2]. ومن منطلقات الفكر الفلسفيّ عند إقبال ما قاده إليه نظره في الثقافات القديمة. يقول: "ولقد أخفقت ثقافات آسيا بل ثقافات العالم القديم كلّه لأنّها تناولت الحقيقة بالنظر العقليّ... وليس من الممكن أن تقوم على النظر المجرّد وحدة حضارة يكتب لها البقاء"[3]. ومن مقوّمات فلسفته التي كاد ينفرد بها "في الحقّ أنّ خطّة الدين وخطّة العلم، على الرغم من تضمّنها مناهج مختلفة، واحدة في غايتها النهائيّة. فكلاهما يستهدف أقصى درجات الحقيقة. والواقع أنّ الدين أشدّ حرصا من العلم على الوصول إلى ما هو في النهاية حقّ"[4]. ومن مبادئه الفلسفيّة أنّ "المطلوب ليس هو "العلم بالله" أي بوجوده. وإنّما "الاتّصال به" و"تجديد الصلة به""[5]. لقد مدّ إقبال الجسور المعرفيّة بمحاوراته لأعلام كثر. من ذلك "القاؤه بالفيلسوف برجسون في باريس وتحدّثه معه في الفلسفة وفي أمور من الإسلام كان يجهلها الفيلسوف"[6]. ولعلّ من أخطر ما واجه به فلسفة الغرب المادّيّة مفهومه للوطنيّة. ففي خطبته في المؤتمر الإسلاميّ... سنة 1922، قال: "أنا لا أقبل الوطنيّة كما تعرفها أوروبا وليس إنكاري إيّاها خوفا من أن تضرّ بمصالح المسلمين في الهند. ولكن أنكرها لأنّي أرى فيها بذور المادّيّة الملحدة. وهي عندي أعظم خطرا على الإنسانيّة في عصرنا"[7]. لقي إقبال، إذن، أوروبا بصورة الفيلسوف المسلم، وسيفعل فعله بفلسفته تلك ممّا تشهد به الكتابات العربيّة والاستعرابيّة.

---

(1) لمزيد التوسّع، انظر: صدّيق، محمّد أبو بكر، **السير سيّد أحمد خان: عصره وبيئته،** مجلّة المجمع العلميّ العربيّ الهنديّ، المجلّد 37، العدد 1، 1438-1439هـ/2017-2018م، ص90.

(2) **محمّد إقبال،** م. س، ص43.

(3) إقبال، محمّد، **تجديد التفكير الدينيّ في الإسلام،** ترجمة: عبّاس محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1955، ص22.

(4) إقبال، محمّد، **تجديد التفكير الدينيّ في الإسلام،** ترجمة: عبّاس محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1955، ص224.

(5) جدعان، فهمي، **أسس التقدّم عند مفكّري الإسلام في العالم العربيّ الحديث،** دار الشروق، الإسكندريّة، ط3، 1988، ص195.

(6) **محمّد إقبال،** م. س، ص43.

(7) م. ن، ص47.

ومن هنا يمكن أن نستخلص أنّ نوعا من الفلسفة الإسلاميّة الكونيّة قد اخترق الزمان والمكان وانتشر ليؤسّس فكرا تعليميّا جديدا لعلّ أهمّ سمة فيه أنّه فكر إنسانيّ صرف لا يستوي بغير عمل يسوقه الأمل وكرامة تشترط الحرّيّة. ألم يقل عزّام: "فلسفة إقبال فلسفة أمل وعمل وجهاد وإقدام..." [1].

(3) **البعد الحركيّ**. وهو ذو اتّجاهين داخليّ وخارجيّ. أمّا الاتجاه الداخليّ فقد قاده أعلام دافعوا على وطنهم وهويّتهم متوسّلين الدعوة إلى الورع والزهد. لقد قام فكرهم على منظومة قيميّة منطلقها المبادئ الإسلاميّة التربويّة المشتقّة من القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة. وعلى قدر المنطلقات تكون النتائج. لقد طمح أهل هذا التوجّه إلى بناء المجتمع الهنديّ على مبدإ المحافظة على السنن النبويّة الدقيقة والتحرّر من البدع والتحرّز من الشبهات التي تذهب بصفاء العقيدة. وقد برز في هذا الفنّ، على وجه التمثيل، الشيخ عبد الله الغزنوي(ت1298هـ) والسيّد مصطفى التونكي(ت1320هـ) والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي(ت1323هـ). وأمّا الاتّجاه الخارجيّ فقد تمثّل في الرحلات العلميّة والبعثات والندوات والمؤتمرات والمحاضرات. وقد شهدت الهند تلك التحرّكات العلميّة التي تصلها بغيرها من بلاد العالم في ميدان المعرفة، منذ وقت مبكّر من القرن التاسع عشر. وكان أن اشتدّ ذلك في بدايات القرن العشرين. ومن أعلام الهند الذين كان لهم صيت خارج الهند السيّد أحمد خان(ت1898م). لقد تجاوز فعله التجسير الثنائيّ بين العرب والهند إلى نوع آخر من التجسير الثلاثيّ الأبعاد، رحّل فيه بعضا من حضارة العرب والمسلمين إلى أوروبا، بريطانيا، تحديدا. لقد دخلها بصورة الهنديّ المسلم المنتصر لدينه والمحبّ لنبيّه. لقد بثّ في بعض من لقيهم أهمّ أسس الإسلام: نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وسيرته النقيّة. لقد حادث المستعرب البريطانيّ توماس كارليْل[2]. ويرجّح أحمد أمين أثر ترويج تلك المعرفة في فكر كارليْل. فيقول: "ولعلّه كان لذلك أثر محمود في كتابة كارليل الفصل البديع عن محمّد البطل في كتابه الأبطال"[3]. وهو كتابه **البطولة وعبادة الأبطال**، السالف الذكر. ساهم السيّد أحمد خان في تطوير الحركة العلميّة بأن مثّلها خارج بلاده. فبنى جسرا علميّا هيّأ، بعد نصف قرن تقريبا، لمحمّد إقبال أرضيّة التفاعل الحضاريّ. فإقبال الشاعر الفيلسوف نفسه يعدّ من الشخصيّات العلميّة الهنديّة الممثّلة للبعد الحركيّ داخل الهند وخارجها. لقد جاب، محمّلا بفلسفته الكونيّة، كثيرا من بلاد العالم مثل فرنسا وبريطانيا وقرطبة وباكستان وأفغانستان وفلسطين ومصر وغيرها. وبثّ مبادئه الفلسفيّة في الذاتيّة التي أمدّ بها مجاليْ التعليم والتربية في الهند وخارجها. وشارك في مختلف الأنشطة العلميّة والثقافيّة مثل المحاضرات والمؤتمرات. فقد شارك في مؤتمر القدس. يقول عزّام: "قدِم

---

[1] م. ن، ص46.

[2] Thomas Carlyle: (1795-1881): مستعرب بريطانيّ. له (***Heroes and Hero-worship***)، عرّبه محمّد السباعي، وصدر تحت عنوان: **محمّد المثل الأعلى**،عن دار طيبة للطباعة الجيزة-مصر، 2008، ط1.

[3] أمين، أحمد، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، دار الكتاب العربيّ، بيروت-لبنان، (د.ت)، ص128.

إقبال مصر في طريقه إلى المؤتمر الإسلامي الذي اجتمع في المسجد الأقصى سنة 1931م"[1]. وشارك كذلك في مؤتمر الطاولة المستديرة بلندن في دورات ثلاث في ثلاثينات القرن العشرين محاضرا حول الفكر الإسلاميّ وتطوّره. يقول عزّام: "وكان إقبال في أوروبا ذلك الحين كثير التحدّث عن الإسلام وثقافته وحضارته. وألقى محاضرات في الإسلام نشرتها الصحف الكبيرة"[2]. ومن الشخصيّات البارزة في هذا المضمار، كذلك، أبو الحسن علي الندويّ[3](ت1420هـ/1999)، الذي كان "عضوًا في أكثر من مجلس، وأكثر من مؤسّسة ، مثل المجلس التأسيسيّ لرابطة العالم الإسلاميّ، والمجلس العالميّ الأعلى للمساجد، ومجلس المجمع الفقهيّ للرابطة، والمجمع الملكيّ لبحوث الحضارة الإسلاميّة بالأردن، والمجمع العلميّ بدمشق"[4]. وكانت رحلاته متعدّدة ومحاضراته شرقا وغربا في أغلب الدول العربيّة والإسلاميّة من المغرب الأقصى إلى إيران والباكستان وما جاورها وماليزيا وبلاد أوروبا أغلبها وأمريكا وكندا وزار الجامعات وحاضر فيها وشارك في المؤتمرات وكلّ تحرّكاته العلميّة مدوّنة منشورة[5]. وقد عدّد شوق بعضا من الفضاءات الأكاديميّة التي حاضر فيها أبو الحسن الندويّ. ومنها"جامعة عليكرة، والجامعة الملّيّة بالهند، جامعة فؤاد الأوّل (جامعة القاهرة)، و جامعة دمشق، والجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، وجامعة أندنبرة، وجامعة لندن، جامعة برمنغهام، وجامعة ليدز، وجامعة غلاسغو، وجامعة كولومبيا، و جامعة كيمبردج، جامعة وايترايت، وجامعة جنوب كاليفورنيا، وجامعة يوتا، والجامعة النظيميّة بسريلانكا، وجامعة أكسفورد، وجامعة العين بالإمارات، وجامعة اليرموك، وجامعة صنعاء، والجامعة الوطنيّة بماليزيا، وجامعة التكنولوجيا بماليزيا..."[6]. لقد كان هؤلاء وغيرهم كثير من مسلمي الهند، أعلاما حركيّين ذوي مشاريع في ربط الصلات بين أواصر الشعوب الإسلاميّة وغير الإسلاميّة نشرا للمعرفة وطلبا للتعايش السلميّ.

الخاتمة: استنتاجات

1) **المعين المعرفيّ المغمور**: مثّل الاستعراب الهنديّ من خلال **نزهة الخواطر** معينا معرفيّا ثرّا من شأنه أن يعبّر بجلاء عن تجسير علميّ حقيقيّ شهدته العلاقات العلميّة بين الحضارتيْن العربيّة والهنديّة عبر

---

[1] م. ن، ص13.

[2] **محمّد إقبال**، م. س، ص43.ص39.

[3] وهو ابن عبد الحيّ صاحب **نزهة الخواطر**. لقد ملأ الدنيا وشغل الناس. وقد خُصّ بأعداد ممتازة في مجلّة البعث الإسلاميّ، لكناؤ، وفي مجلّة الرائد، لكناؤ، وفي مجلّة الأدب الإسلاميّ، الرياض، وفي مجلّة الصحوة الإسلاميّة، حيدر آباد، وفي مجلّة ثقافة الهند، نيودلهي. انظر: موقع الشيخ أبو الحسن الندويAbul Hasan Ali Nadwi : https://abulhasanalinadwi.wordpress.com/tag

[4] القرضاوي، يوسف، **الشيخ أبو الحسن الندويّ كما عرفته**، دار القلم، دمشق، (د. ت)،ص8.

[5] م.ن، صص46-56.

[6] شوق، شاكر عالم، **السيّد أبو الحسن الندويّ: حياته وإسهاماته العلميّة**، مجلّة القسم العربيّ، جامعة بنجاب، لاهور-باكستان، العدد العشرون، 2013م، ص61.

تاريخهما الطويل. لكنّ النصوص في هذا الشأن ما تزال مغمورة. لذلك وجب التوجّه إليها رأسا لاستنطاق ما فيها من إفادات وفرائد تغني حقل البحث العلميّ.

2) **تعليم اللغة لتطوير الاستعراب:** تبيّنّا من خلال محاولة البحث هذه أنّ الصلة بين الهند وبلاد العرب والمسلمين كانت رهينة جهود العلماء الذين بدت العلاقات بينهم، من خلال **نزهة الخواطر** قائمة، لا سيّما في بداياتها، على ضرب من المقابسة. إذ كان الطرفان يتبادلان المعارف أخذا وعطاء. غير أنّ الذي بدا في حاجة إلى معاودة النظر ومزيد التفعيل هو ما يتعلّق بالمسألة اللسانيّة. ومن هنا يكون من المجدي إعادة التفكير في مسألة تعليم اللغة العربيّة في مؤسّسات التعليم الهنديّ لتطوير المشغل الاستعرابيّ الهنديّ.

3) **من التراكم إلى صناعة المعرفة:** لئن عبّرت المراحل التي قطعها التجسير العلميّ العربيّ-الهنديّ عن محطّات حضاريّة ابتدأت باكتشاف الآخر وانتهت بتصحيح مسار الذات مرورا بالنبوغ في تلقّي المعارف العربيّة وتمثّلها ثمّ التصنيف فيها، فإنّ صناعة المعرفة الاستعرابيّة ما تزال بحاجة إلى تحويل المادّة المعرفيّة إلى آليّة تعايش، ولا ينبغي أن يُكتفى فيها بالتراكم. لذلك وجوب تفعيل علاقات بحث علميّ أكاديميّ بين جامعات عربيّة وأخرى هنديّة تنظر في هذا المشترك الحضاريّ.

قائمة المصادر والمراجع

(دون اعتبار ألف ولام التعريف-أبو-ابن)

(1) المصدر:

الندوي، عبد الحيّ، **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمّى بنزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**، تهذيب: محمّد إقبال الأنصاريّ الندويّ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 1420هـ/1999م.

(2) المراجع:

أ- بالعربيّة:

* إقبال، محمّد، **تجديد التفكير الدينيّ في الإسلام**، ترجمة: عبّاس محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1955.

* أمين، أحمد، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، دار الكتاب العربيّ، بيروت–لبنان، (د.ت)، ص128.

* جدعان، فهمي، **أسس التقدّم عند مفكّري الإسلام في العالم العربيّ الحديث**، دار الشروق، الإسكندريّة، ط3، 1988.

* شوق، شاكر عالم، السيّد أبو الحسن الندويّ: حياته وإسهاماته العلميّة، مجلّة القسم العربيّ، جامعة بنجاب، لاهور–باكستان، العدد العشرون، 2013م، صص49-77.

* صدّيق، محمّد أبو بكر، **السير سيّد أحمد خان: عصره وبيئته**، مجلّة المجمع العلميّ العربيّ الهنديّ، المجلّد 37، العدد 1، 1438-1439هـ/2017-2018م، صص69-104.

* عزّام، عبد الوهاب، **محمّد إقبال سيرته وفلسفته وشعره**، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012.

* القرضاوي، يوسف، **الشيخ أبو الحسن الندويّ كما عرفته**، دار القلم، دمشق، (د. ت).

* النملة، علي بن إبراهيم، **التجسير الحضاريّ بين الأمم في ضوء تناقل العلوم والآداب والفنون**، دار الآثار الإسلاميّة، الكويت، ط1، 1430هـ/2009م.

ب– بغير العربيّة:

Cook, Scott D. Noam & Brown, John Seely, ***Bridging Epistemologies: The Generative Dance Between Organizational Knowledge and Organizational Knowing***, 1999. Organization Science, 10 (4), 381-400 (Haikudeck.com)

ج–موقع رقميّ:

* موقع الشيخ أبو الحسن الندويAbul Hasan Ali Nadwi :

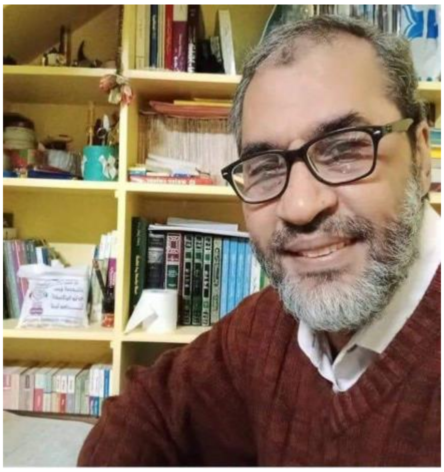
https://abulhasanalinadwi.wordpress.com/tag

* موقع هنداوي: https://www.hindawi.org/contributors/48649709/

*** تمّ بفضل الله في 27 ربيع الأوّل 1442هـ /13-11-2020 ***

فنوننا: بين الخصوصية، والتبعية

أ.د. ناصر أحمد سنه، كاتب وأكاديمي من مصر.



الفن نشاط وثيق الصلة بالحياة والمعرفة والحضارة، فليس ثمة حضارة بلا فنون، تضيف لها غايات ووسائل تحقق الخير والحق والجمال والنفع، كما تحتاجه الحضارة ـ ولسنا بدعا من ذلك الأمر بيد أن لنا خصوصيتنا الإسلامية- ركيزة في نهوضها وانطلاق مسيرتها، وتعبيراً عن قيمها وإبداعاتها وإنجازاتها، وهو ـ أي الفن ـ يرتفع ويسمو بارتفاعها وسموها، وينحدر ويهبط باضمحلالها وهبوطها.

المتأمل في الحالة الفنية لدينا ـ وهي من أهم التحديات التي يواجهها العقل المسلم، وعليه أن يوجهها، فيقومها ويضبطها، ولا يتجاهلها أو يهرب منها ـ يجد أن لدينا أفلاما ومسرحيات، ومواد إذاعية وتلفازيه، ورسم وفنون تشكيلية، و"إنترنت" مجاني تحصل منه على ما تريد، "وأشرطة كاسيت"، ومئات القنوات الفضائية الغنائية، معظمها تبث أغاني "الفيديو كليب" التي بها ما بها..، فهل يقدم هذا "السيلِ العرم" فناً يخضع لمذهبيتنا الإسلامية، ثم يلتزم بالشروط المنهجية الفنية، أم هو"لا فن"؟، وهل باتت الفنون تغرد خارج قيم الأمة وخصوصيتها، ناشرة ما يتناقض وثوابتها.. مروجة لثقافة (الآخر)، ورؤيته الوافدة، ومذهبية المادية الإستهلاكية؟ وكيف تساهم شمولية وجماليات الفنون ذات الخصوصية الحضارية الإسلامية، في النهوض بأمتنا، ومن ثم تقديم الأنموذج الإنساني العالمي؟، السطور التالية محاولة للإجابة عن هذه التساؤلات..

التعبير الفني: مقاربة أولية

التعبير الفني ـ علي شتي أشكاله ومضامينه ـ أداة تساعد الإنسان علي معرفة الكون، ومضاعفة الوعي والتعبير عن الذات، فهو لغة عالمية مغروزة في النفس الإنسانية لتكثيف إحساسها بالخير والحق والجمال، كما تساعدها علي تنظيم وضبط وتوجيه انفعالاتها، وأفكارها (فرح وبهجة، ألم وحزن، وتشتت وضياع، وقلق واضطراب..الخ)، والفن المتوازن والمنضبط يتناول تلك الأمور والمشاعر ويعالجها (تركيزا وتكثيفا وتلميحا وتصريحا وتجريدا وتجسيدا وشكلا ومضمونا في آن واحد)، ليصنع من العمل الفني ـ بصورة مباشرة وغير مباشرة ـ قيمة إنسانية أخلاقية جمالية إيجابية، ومن ثم ينتزع من نفوسنا كل إحساس بالصراع أو التمزق ليترك توافقا رائعا بين هذا العمل الفني وبين زيادة الوعي الذاتي والأخلاقي والفكري والوجداني .. الفردي والجمعي. هذا التوافق يعتبره النقاد جزءا عضويا وأساسيا من وظيفة الفن.

جناحي التعبير في الأعمال السينمائية والمسرحية والإذاعية والتلفزيونية وغيرها هي: روح الشعر (جوهر الفن) والدراما (الحركة/ الصراع/ البناء، والدراما تختلف عن الفن المأساوي= التراجيديا، وحتى الكوميديا= الملهاة يتحتم أيضا أن تكون درامية)، فالبناء الدرامي المتكامل ضرورة، وحد فاصل بين الفن الجيد والرديء. ولقد نشا المسرح من رحم الشعر، فلغة المسرح لغة خصبة ذات إيقاع موحى، يتعانق والإيقاع الحركي التمثيلي. والفن المسرحي نتج عنه الفن السينمائي الذي هو خليط من أشكال فنية متعددة، بيد أن السينما تستمد قوتها من تأثير وإيحاء وإبهار الصورة مع الصوت[1].

بينما تهدف الإيقاعات الموسيقية والأناشيد الغنائية إلي إعمال الخيال الخصب والعقل الواعي، وليس التأثير الحسي فقط، ومن ثم تسعي لإعادة إنشاء تلك الأصوات في عقولنا ووجداننا، لتتناغم مع إيقاعاتنا الداخلية، لتنتج أفكاراً ومعان، وأحاسيس وجماليات جديدة مبتغاة. ويأتي التوظيف الجيد للفنون التشكيلية الرسم والخط والزخرفة والتصوير وغيرها.. شكلا ومضمونا ليثير الخيال والحس معا، فهي تمد حاسة البصر باحتياجاتها الإدراكية التي تستطيع أن تميز بين سبعة وعشرين جنسا من المدركات كلٌ منها مخالف للآخر:"الألوان والضوء والظلمة والأطراف والحجم والبعد والقرب والوضع والشكل والتفرق والاتصال والعدد والحركة والسكون والملامسة والخشونة والكثافة والشفيف والظل والحسن

والقبيح والبشاشة والاختلاف والضحك والبكاء والرطوبة المعتبرة بالسيلان واليبس المعتبر بالتماسك".

حضارتهم وحضارتنا: مرتكزات الفن

الفن في فلسفة الحضارة الغربية يستند بقوة إلي النظرة الإغريقية الرومانية القديمة التي اعتبرت الإنسان جسداً مادياً فقط، فراحت تتمادى في إبراز مفاتنه، وإشاعة جماله، وتنمية عضلاته ليصارع الخصوم والوحوش.. و"الآلهة الوثنية"، وليعب من الشهوات والمتع المادية، وليشبع غرائزه" الطينية" بأي طريقة كانت: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"(الجاثية:24). وعلي الجانب الآخر عبرت فنون أخري عن وجدان إنسانها مستندة علي مذاهب -"كالبوذية والهندوكية والرهبانية"- أماتت الجسد وهجرت الزواج، وانفرد المرء فيها واعتزل الناس، وترك دنياه بزعم كسبه لروحه، فماذا جنت البشرية غير الانقلاب على تلكم الرهبانية المبتدعة، يقول جل شأنه: "ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ"(الحديد:27).
وفي عصرها الحديث - بعد الثورة علي الكنيسة- ارتكزت فنون الغرب على الفصل/ القطيعة بين الدين/الأخلاق وبين الفنون، وسادت فنون تعبر عن نظريات :"العقلانية والمادية والعلمانية والدارونية الاجتماعية والسياسية، والفرودية، والحتمية البيولوجية، البراجماتية النفعية، والحداثة وما بعد الحداثة، والعولمة الخ". فرأينا شيوع فنون تدعو لسيطرة واستعباد الأقوى للأضعف، وتمجد النزعة العنصرية،و"فنون القتل والتدمير"، "وعبادة الجنس، والسوبر ماركت".. حيث لا اعتراف إلا باللذة المؤقتة والعابرة والمتغيرة واللانهائية، فكلما استهلك الإنسان إزداد رغبة في المزيد، فلا حد للإشباع، لذا فكل شئ مباح بلا حدود، بغية الوصول إلى ما لا يمكن الوصول إليه من السعادة والكينونة.
وبدلا من تبنيها التعبير الإنساني الأصيل تتبنى فنون"العولمة والحداثة وما بعد الحداثة"، الثقافة الشعبية في ثوبها الرديء لتنتجً ذوقا رديئاً ، متلاعبة بالصورة في أسوا أحوالها، وتسوقها لتكرس"صناعتها وثقافتها"، ولم تعد العين بريئة، بل تصارع هذا السيل العرم من الصور ذات الإغواء والأغراء والتلميح والتصريح الجنسي، معتمدة التغيير السريع أكثر من الثبات والبقاء، فتعلو بأسماء لتحقق ربحية اقتصادية، ومن ثم تهوى بهم لتأتى بآخرين وهكذا دواليكك [2].

إن مرتكزات الفن الغربي، ومن سار علي منوالها ـ عدا مدارس فنية محدودة ونادرة ـ تسعى لإفراغ الإنسان من كل فكر إلا "الفكر العدمي"، ومن كل عقيدة إلا "عقيدة اللذة"، ومن كل قيم إلا "قيم المادة والاستهلاك"، ومن كل سمو للإنسان إلا أنه "تطور من الحيوان كما يزعم داروين"، ومن كل شوق روحي ألا "أنه مجموعة من الحاجات المادية والغرائز الجنسية عليه إشباعها كي لا يصاب بالكبت، كما زعم فرويد".. فماذا عبرت فنون إنسان الحداثة وما بعد الحداثة والعولمة إلا عن عمق التأزم الإنساني والتعاسة والتمرد والجريمة والمخدرات والبغاء والانتحار؟.

أما الفنون في فلسفة الحضارة العربية الإسلامية فتستند إلي أن الإنسان جسد وروح ووجدان وعقل .. جسد وغرائز تشده إلي الإخلاد إلي الأرض، وروح ووجدان يسعيان إلي الإيمان والحق والخير والجمال، وبينهم عقل يفكر، وإرادة تختار، ومسؤولية فردية وجمعية :"إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا"(الإنسان:3)، وسبل ميسرة تجعل كل نشاط وفعل حياتي منضبطا بـ:"أقرا بسم ربك الذي خلق"(العلق:1)، ومقاصد شريعة تعمل علي حفظ ضرورات الناس الخمس: العقل والنفس والنسل والدين والمال، التي لا يصلح الأمر إلا بها، فالفنون التي تعمل علي حفظها هي فنون "إسلامية"، والتي تخالفها ليست من الإسلام في شيء.

فالمذهبية الإسلامية في كل شيئ تحل الأزمة الإنسانية, و"الفصام النكد" بين جوانب الإنسان، وأعظم ما تقدمه الذاتية الإسلامية للفن المعاصر: الرؤية المترابطة لمكونات الإنسان واحتياجاتها المتعددة في تكامل وتداخل، تحقيق التوازن/ التوحد بين أعمال الدنيا والآخرة وفق القيم الحاكمة، إشباع فني وتوجيه وإرشاد غير مباشر. فحضارة الإسلام تنفرد برؤيتها الفنية والجمالية والتجريدية التي تنبع من موقف الفنان المسلم من الكون.. توحيدا وتنوعا وتناغما وانسجاما وتوازنا.. وفي هذا التوحيد /الوحدة/ التنوع ثراءً للتذوق الفني، بعيدا عن كل ما يشين السمو النفسي، والصفاء الاجتماعي:" قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون"(النور:30-31). فـ "المثيرات البصرية" والمتكررة وما تحمله من رسائل للمخ فتختلط بالانفعالات والنزوع السلوكي، مما قد يسبب ـ إذا لم تشبع ـ قلقاً وضغطا وتأزما نفسانيا علاجه والوقاية منه:"غض البصر وحفظ الفرج، والنهى عن التبرج والسفور في غير سياقاتهما الشرعية"، فإذا ما

نحا نحواً غير شرعي يؤدي إلى الوقوع في الموبقات:"إن الله تعالى يغار، وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرم الله عليه"[3].

إن تعاليم "سورة النور" وغيرها قد شرعها الله تعالى ليسود المجتمعات الطهر والحياء والإيمان:"والحياء لا يأتي إلا بخير"[4]، والخير سمة فنون المجتمع المسلم، فنون لا تفتح أبواب الإثارة، بل تدرء دواعي الفتن قبل قيامها، وتئد الغواية في مهدها، وتطفأ سعار الشهوات قبل تأجج نيرانها، وتحفظ علي الناس كرامتهم وذاتيتهم التي ميزهم الله بها عن سائر المخلوقات، وتبقي للمرأة كرامة تعلو بها عن ان تكون سلعة رخيصة، أو أداة من أدوات الزينة، أو متعة لكل الناس، أو معرضا للأزياء لكل غادي ورائح، أو مصدرا من مصادر الترف لكل ناظر. إنها فطرة سليمة، والفن الإسلامي يقوي ويضعف بقوة وضعف الفطرة، فهو مؤشر لها في صحتها واعتلالها.

حضارتهم وحضارتنا: "صناعة الفن"

الإنفاق العالمي على الفنون ومنتجاتها يزيد عن 3 تريليون دولار (العام 2003م)، بينما يبلغ ما يُنفق في العالم الإسلامي نحو 800 مليون دولار، وتتبني شركات الدعاية الكبرى"صناعة السينما والغناء" فتروج أو تستحدث منتجات جديدة وتسوقها تجاريا بإدماجها خلفية للمشاهد أو في الحوار أوفي الدراما، ومن خلال أساليب الإيحاء والاستهواء والتقمص، وربط المنتجات التجارية بالشعور بالسعادة والحب والنجاح والبقاء، يتم تسويق هذه المنتجات: موديلات سيارات وملابس ومجوهرات ونظارات ومشروبات ووجبات سريعة.. حتى دمي وحفاضات الأطفال، كما قد تروج لسلاسل مطاعم عالمية أو ملاهي أو مقاهي بعينها الخ.، وقد لا يجني الفيلم أرباحا في دور العرض، لكنه يعوضها أضعافا لقاء الدعاية / بيع هذه المنتجات (تكلف إنتاج فيلم "تهديد الشبح" 115 مليون دولار ولكنه جني 3.5 مليار دولار من بيع منتجات أعلن عنها الفيلم). وعندما اشترت شركة "كوكا كولا" استوديوهات كولومبيا للإنتاج الفني.. أغرقت الأفلام بالدعاية عن مشروبها، أما شركة" ديزني" العملاقة فتروج عن الجولات داخل ملاهيها، وعن منتجاتها والوجبات السريعة عبر أفلامها ومجلاتها ونحو23 ألف فرع

عالمي من أفرع سلسة مطاعم ماكدونلاد. أما مضمون وشكل الأفلام/ الأغاني التي تنتجها الآلة الفنية الغربية فأغلبها يتسم بالعنف والعنصرية وسطوة "السوبر مان والكاوبوي" والجريمة المنظمة والمخدرات والإثارة والعرى والجنس والإباحية (أمريكا تحتكر 70% من أفلام وثقافة الجنس).

لقد تبدت الحدود الفاصلة بين الإبداع الفني والتجارة والتسويق، واصبح اهتمام صناعة الفن منصبا على السوق والربح. فضلا عن أن معظم نقاد الأعمال الفنية يعملون لدي الشركات التي تصنع هذه الأفلام/ الأغاني، وليس للمرء أن يكون ناقدا موضوعيا ومسوقا للعمل الفني في آن معا. أما المسألة الفنية لدينا فهي ـ أكثر من كونها صناعة وافدة كلية ـ صناعة محلية/ مُقلدة قد تبغي التنفيس عن واقع متأزم، والهروب من مشاكل مزمنة تحتاج إلى جهود كبيرة لحلها، وذلك بالترفيه عن المجتمعات بتقديم وجبات من غناء ورقص ولهو وقضايا هامشية "لتعيش حياتها، وتقتل أوقاتها". فالمتأمل في صناعة الأعمال التلفزيونية/ المسرحية/ السينمائية (ولن أذكر أسماء ونماذج لها، فهي لا تخفي عن القارئ الكريم) يجد مضامينها نمطية متكررة مثل:

ـ مواضيع الغرام بين الرجل والمرأة، لقائهما فراقهما، ووقوعهما في الخطيئة "بدافع من الحب"، مع تكرار التلميح/ التصريح بان الزواج والأسرة والأولاد تقتل الحب وتمثل عبئاً ثقيلاً ينوء على الحمل والتحمل. وما من مشهد يظهر فيه "مأذون شرعي" (أو حتى مدرس اللغة العربية والدين..) ليتمم عقد الزوجية الشرعي، إلا وكان مثارا للسخرية والضحك منه أو عليه.

ـ حياة الراقصات والغواني وفتيات الهوي والحانات وتاجرات المخدرات، والتبرير الدائم بأنهن:"ضحايا للمجتمع وللفقر ولمرض ذويهن الذي دفعهن لهذا المسلك"، وأعمال فنية تروج "لحرية المرأة وتحررها" وخروجها عن "التقاليد والضوابط الاجتماعية، وبدعوي مساواتها بالرجل/ الزوج، ولها أن تخونه كما يخونها الخ.

ـ مضامين الجنس والعنف والبلطجة والعدوان علي الضعفاء، وكسب المال بأية وسيلة والتبذير والترف:، ومظاهر التفكك الأسري والاجتماعي، وتأكل علاقات وروابط الأبوة والأمومة.

ـ شيوع الشعوذة والمخدرات والمسكرات.. تجارة/ وتعاطي "الكيف"..هروبا من كل مشكلة تواجه الممثل، مع عدم الإبراز الكافي لمآل من ينحرفون في هذا الطريق.

ـ الإسهام فيما سمي "الحرب علي الإرهاب" بربط السمت الإسلامي للشخصية بالعنف والتشدد وتدمير المجتمع والسطحية وعدم الوعي بمشكلات المجتمع والعالم، في حين تبدو الشخصيات الأخرى "المتغربة والغريبة عن المجتمع وقيمه" أكثر "استنارة وثقافة وتسامحاً" الخ.

- والدراما التلفزيونية/ المسرحية تشد الناس عبر تفاصيل هامشية علي جانب قضايا المجتمع، والمسرح قد تحول لأعمال هزلية لا تهتم إلا بإثارة مسحة من السخرية والضحك، وقد تسفر عن سلبيات مجتمعية، بل لقد تحول المسرح في غالب أعماله إلي مرقص، وعينه علي"شباك التذاكر، والسياحة الداخلية، والجمهور عايز كده".
- حتى تلك الروايات والأعمال الأدبية والاجتماعية والتاريخية التي حُولت لأعمال سينمائية/مسرحية/ تلفزيونية، فغالبا ما تُعرض مشوهه ومن زوايا ضيقة/ سطحية / محشوة بأمور لا تمت للنص وللمضمون وللواقع الأصلي بصلة:"شهيدة الحب الإلهي" رابعة العدوية العام 1962م، السيد البدوي العام 1953م، ولولا جهد المخرج "حسام الدين مصطفي"، وأشعار"عبد الفتاح مصطفي" لما نجح فيلم "الشيماء" عن رائعة أديب الإسلام علي احمد باكثير" شادية الإسلام"[5].

وماذا عن أغاني "الفيديو كليب" العربية؟

في دراسة ميدانية حديثة - في الجامعة الأردنية للباحثة مارغو حداد - ذكرت أن الأثر السلبي لأغاني الفيديو كليب العربية - والتي فاقت في إثارتها للغرائز ومخاطبتها للجسد نظيرتها الأجنبية- بات واضحا فقد أعطت صورة نمطية سلبية عن المرأة كسلعة استهلاك للرجل، تعرضها في غرف النوم مع إيحاءات وحركات مخلة، ولا علاقة لها بمضمون الأغنية، ويبدو أن المرتكز لهذه الأعمال تجاري بحت: مزيد من الرقص والتعري.. لمزيد من البيع والتسويق. ويبقي الضرر- كما تشير صاحبة الدراسة- علي الأطفال والشباب والذين لا يميزون بين الفن الجيد والهابط، وكذلك تكريس النظرة السلبية عن المرأة العربية [6]. كما أن الإيقاع الموسيقي في غالب هذه الأغاني فقرة واحدة مكررة، وغالبا ما يتم صناعتها رقمياً.
ثم هناك مئات من أشرطة "الكاسيت" تطل برأسها كل يوم، وحتي نغمات " الجوال والخلوي" وتصدمك أينما ذهبت بأصوات وكلمات وضجيج.. ليس له من جماليات الفن من شي:"تلوث سمعي غنائي"، والسؤال المطروح: أين دور الرقابة علي المصنفات الفنية؟، وأين دور علماء الاجتماع والنفس والنخب الفنية والاجتماعية في علاج هذه الظاهرة التي تحطم الذائقة الفنية الفردية والمجتمعية.

الخصوصية الإسلامية.. و"صناعة" الفن الأصيل

بات واضحا. وإن كان يستلزم المزيد ـ تنامي الأفلام والمسرحيات والمسلسلات والأناشيد التي تتناول جوانب تاريخية واجتماعية جيدة، وقيم إيجابية نافعة، فناً ملتزماً شكلا ومضمونا.. حيث التعبير الراقي، والقواعد الرفيعة، والرسالة الأخلاقية، والأفكار السامية، والتوجيهات غير المباشرة، سموا بالذائقة الذاتية الفردية والجمعية والإنسانية. وبإمكاننا القول إن الفكرة تحدد إسلامية العمل الفني، والجماليات تحدد إبداعيته [7]، وهو فن منفتح أمام موضوعات متنوعة، وأشكال شتي، ومدارس محلية عريقة:" فقد انفتح علي الفنون السابقة والمعاصرة له، يتفاعل معها ويطورها وفق أنساقه وجمالياته ليخرج بمدارس متميزة في الفن الإسلامي كمدارس الفن الإسلامي في مصر والشام، والمدرسة الفارسية والهندية، والمدرسة الأندلسية، والمدرسة العثمانية التركية"[8].

ولأهمية الأعمال السينمائية التي تناولت السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.. تناولها النقاد بكثير من النقد.. للشكل والمضمون وأسلوب الحوار، وتشخيص الصحابة الكرام، والمشاهد المجافية للواقع التاريخي، كي يتم تطوير هذه المسيرة وتحسنيها.. بدءاً من أفلام:"ظهور الإسلام" عن قصة "الوعد الحق" لطه حسين العام 1950م، ثم"انتصار الإسلام" العام 1951م من إنتاج شركة" أفلام شلتوت" للإنتاج الفني، ثم "بلال مؤذن الرسول" العام 1953م، و"خالد بن الوليد" العام 1955م، والذي شارك في كتابة السيناريو الحوار الخاص به الشيخ د.أحمد الشرباصى، و"الله اكبر" العام 1958م، و"هجرة الرسول" العام 1963م، ثم "فجر الإسلام" العام 1971م من روائع قصص عبد الحميد جودة السحار، و"وا إسلاماه" عن قصة لعلي احمد باكثير. ثم تأتى أفلام"الناصر صلاح الدين" ليوسف شاهين، و"عمر المختار، والرسالة" " لمصطفي العقاد" في نسختيهما العربية.

وفي المسرح الإسلامي برزت فرق مسرحية كـ "فرقة الشبان المسلمين"، ونصوص وأعمال مسرحية جديرة منها:"الملحمة الإسلامية الكبرى..عمر" في تسعة عشر جزء لعلي احمد باكثير، وله نصوص مسرحية أخري كـ" إله إسرائيل"، ومسرحيات عبد الحميد جودة السحار ومنها "الله اكبر"، "عالم وطاغية"، و"يوسف الصديق" ليوسف القرضاوي، و"عروة بن حزام" لهاشم الرفاعي، و"محكمة الصلح الكبرى" لمحمد ماضي أبو العزايم، و"النجاشي ملك الحبشة"، و"جوار الله"، و"الأبطال"، و"هرقل عظيم الروم" لمحمد عبد المنعم العربي،"مسرور ومقرور" لأحمد بهجت، "محاكمة رجل مجهول" لعز الدين إسماعيل، و"محكمة الهزل العليا.. تحاكم الأيدي المتوضئة" لجابر قميحة، و"أصحاب الأخدود" لمحمود أحمد نجيب،"وعودة هولاكو"، و"القضية"، و"الواقع .. صورة طبق الأصل" لسلطان بن محمد القاسمي وغيرهم. ولا ينسي المسلسل التلفزيوني الكبير:"محمد رسول الله" من إخراج"أحمد طنطاوي"،

وسيناريو وحوار" مينة الصاوي" عن إبداعات القصص الموسوعي لعبد الحميد جودة السحار[9].

والقرآن الكريم بإعجازه المتعدد يقدم نموذجا إعجازياً صوتياً، حيث ظواهر المدود والغنة والفواصل والنظم القرآني، ويكفي أن تستمع للأداء الصوتي المتميز للشيوخ الفضلاء أمثال: محمد رفعت، ومصطفي إسماعيل، والمنشاوي والحصري، وعبد الباسط عبد الصمد، والحذيفي والسديس والعفاسي وغيرهم، لتمتلئ إيمانا وسموا وتجاوبا وخشوعا، كما أن التراث اللغوي العربي حافل بالتوظيف الفني للأصوات، وحسنا تخصص فضائيات لإذاعة القرآن الكريم علي مدار الساعة لمثل هؤلاء الأعلام وغيرهم. كما وهناك أغانٍ وفنون إنشاد إسلامي أصيل، والعديد من المنشدين المرموقين..عربا أو عجماً، فمن العرب:" الشيخ سيد النقشبندي، ونصر الدين طوبار، وأبو راتب، ومشاري العفاسي، وعماد رامي، وخالد بركات وآخرين". ومن العجم :"كات استيفن أو يوسف إسلام" ، و"سامي يوسف"، "وجوليان فايس أو جلال الدين" وغيرهم، وإقبال الجماهير عليها عبر شرائط الكاسيت ونغمات "الجوال، وعبر القنوات الفضائية التي تسارع لبثها.

وفي تنوعه يبهرك الفن الإسلامي:" بتنوع أشكاله وصناعاته ومجالاته وزخرفته، وهذا التنوع يبلغ شأوا من الصعب معه أن تجد تحفتين أو عملين فنيين متماثلين، ومع ذلك يمتاز بوحدته"[10]. ففي واحد فقط من متاحفنا الإسلامية ـ المتحف الإسلامي بالقاهرة ـ توجد حوالي 96 ألف تحفة فنية رائعة ونادرة وفريدة.

وتتبدى جماليات الفن الإسلامي كثيرا في تناول الفنان المسلم ـ وقد أستلهم إعجاز القرآن الكريم وتصويره الفني واللوني وذكره الألوان الأساسية، كالأحمر والأصفر والأزرق، وذكر من الألوان الثانوية "الأخضر" وهو من الألوان المركبة وكذلك في تساو للمحايدة الأبيض والأسود ورسم صورا بديعة بها [11]ـ لعلاقات اللون والمساحة والتناسب والتناسق والتناغم والإيقاع والظلال والحركة في فنون العمارة والزخرفة والمنمنمات والزجاج والخزف والقاشاني والنحاسيات والمعادن والنسيج والسجاد والخط العربي وغيرها.. عطاء فنياً وجمالياً ونفعياً لكل ما تحتاجه النفس وحواسها المتعددة. فالعمارة.. عمار واستقرار وبناء يؤيده الإسلام، سواء للمساجد: "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر"(التوبة:18)،أو للزوايا والتكايا والخانقاوات أو عمائر ومساكن ومشافي ودور علم وأسبلة وأوقاف على الفقراء وعابري السبيل، حتى الحيوانات الضالة وفي هذه وتلك تبدو جماليات تكيف العمران مع الفراغ العمراني والزخرفة.

إن من خصائص أمتنا أنها أمة إجتماعية، وليس فردية النزعة كما عند غيرنا. إن إمتنا المسلمة ذات بناء جماعي، يغذيه شعائرها التعبدية التي غلبها تؤدي بصفة

جماعية، وشرائعها المنظمة والحافظة لوحدتها الإجتماعية. لذا ففعل النهضة ينبغي أن تكون جماعية. فتفعيل الحياة الإجتماعية يحقق للأمة طبيعتها التضامنية، وترابطها الإنساني، ويخلق رأيها العام، واتفاقها وإجماعها حول قضاياها، كما يعظم دور الفرد داخل جماعته تلك. لذا فحداثة العمران ـ علي سبيل المثال ـ وبيئة السكن، ونوعية الإسكان، ومناطق وتوزيع التجمعات التي لا تراعي بيئة إجتماعية صالحة، وخصوصيات مناسبة تؤدي إلي التفكك والتنازع بدلا من التواصل والتضامن الإجتماعي. ولعل المناطق العمرانية الأكثر حداثة تشهد تفككا إجتماعيا وسلبيات حياتية أكثر من نظيرتها التي راعت تلك الخصوصية الإجتماعية في جانبها العمراني.

والزخرفة والمنمنمات في الفن الإسلامي بديعة، يقول د. بشر فارس في كتابه "سر الزخرفة الإسلامية":"منه تبتدئ الأسباب وتنتهي المسببات، وبفضل اللدونة، الوحدة، في الزخرفة الإسلامية، دوارة تارة وتارة متوترة، وهي في أكثر الأحوال تلتوي وقلما يدركها البهر.. ووجهتها أبدا ما لا حد له فهي ماضية بلا ملل، وهيهات أن تبلغ ما تهدف إليه فشانها شان إيقاع يترنح منقادا للصبر".

وفنيات الزجاج والخزف والقاشاني والنسيج والسجاد نالت من الفنان المسلم الاهتمام الأكبر، والتطوير المستمر لما فيها من التجريد والجمال، فضلا عن النفع لتتمازج الأغراض الثلاثة في آن واحد.

إن الإسلام مدد للحضارة وينبوعها الصافي، وهو سند للفنان التشكيلي المسلم، ففي التشكيل قدرة فائقة علي الإقناع والإمتاع عبر حواجز اللسان واللغة والمسافة والجنس، بيد أن الفن الإسلامي وبخاصة في مدارسه الفنية شديدة التجريد في مصر والشام، حسب ما تذكر د. نعمات أحمد فؤاد:" لم يعط صورة الإنسان أو الشجر أو النهر" كينونة".. لأنه يعتبرها ظلالا عابرة في طريق تطلعه الدائم إلي ما وراء الطبيعة...إلي الله الواحد الخالق:"هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسني، يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم"(الحشر: 24)، ويقول تعالي شأنه:" يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"(سبأ:13).

والعربية لغة القرآن الخالد.. معجزة الإسلام، لذا فالخط العربي وزخرفته وجمالياته وتحسينه ذو شان هام لدي الفنان المسلم، ويكفي أن الله تعالي قد اقسم بأداة ذلك الخط، وسبيل التعبير عن تلك اللغة :"القلم"، ومن ثم فالعناية به "ترتيل" كحب ترتيل القرآن، يقول د. فريد شافعي:"اخرج الفنانون المسلمون من الحروف وأطرافها أشكالا وعناصر زخرفية تتجمع في كلمات وعبارات ينتج منها كلها موضوعات زخرفية ذات إيقاع فني متناغم وتبزها في أحايين كثيرة عناصر نباتية

وهندسية وضعت في مستوي خلفي منها لتزيد من جمالها، وزينوا بها منتجات الفنون من عمارة وكتب وتحف زخرفية الخ"[12].

الفن الإسلامي يقدم الأنموذج الإنساني العالمي

تكفي الإشارة لما ذكره "ول ديورانت" في قصة الحضارة إن:"المسيحية في مثاليتها المجردة وُضعت لتسير عليها أقلية ورعة، ولكن الإسلام احتفل بالدين والدنيا معا، فميزة الإسلام أنه أسلوب حياة ونمط سلوك من ابسط الأمور لأعلاها، الإسلام يحب المتعة من غير إثم، والفن نعيم روح، ولكن الترف المادي عبء، بيد أن الترف لمعنوي نجاح، ونعمة كبري حين تجعل من الحياة فنا جميلا وان تجعل من الفن حياة جميلة، والفن الإسلامي متفائل فهو من بشر الإسلام وبشريته إلي جانب قدسيته .. دين لا ينكر الزينة والمتاع، ومن هنا ولع الفن الإسلامي بالتزويق، وكأنه موسيقي الشعر العربي المقفى، أو فيه سحر الكهرمان، أو بيان حسان، أو غنائيات البحتري، وحتى الخزف ترقص فيه الألوان من الفرحة، وتغني الظلال في تطريب، وينسكب الضياء مشرقا كنور الأيمان، قريرا كضمير المؤمن، إنه فن أولئك الذين فرقوا بين النظر والسمع، وحلم الإنسان المعاصر الاستقرار والوئام والسلام النفسي وهو ما نجح الإسلام في الإيحاء به من خلال البهجة/ السعادة في العمل الفردي والجماعي، والقدرة علي التنويع مع الاحتفاظ بوحدة العمل".

والخلاصة: إن الفن يعالج قضايا الفرد والمجتمع والإنسانية، وهو يدرك الأبعاد والظروف والقوانين التي تتحكم في حركتهم، فهو الضمير الواعي الذي يُقوم المسار، كما ويعكس الآلام والآمال والتطلعات للمستقبل، وليس فنا منبت الصلة عن الواقع تحت دعوي"الفن للفن"، ومن هنا دوره الهام في مشروع النهوض الحضاري للامة، وتقديم الأنموذج الإنساني . بيد أن الفن عندما يقلد أنماطا وافدة يحيد عن غاياته الأصيلة، ويفتقد معالم أصالته وخصوصيته، ومن المعلوم: انه كلما توغلت في الخصوصية.. كلما ازددت عالمية، فتلك الأنماط المستوردة غريبة عن واقع الناس وتفكيرهم وثقافتهم، فالأمة العربية والإسلامية التي تسعى للنهوض واستعادة ريادتها، محور اهتمامها العمل والبناء والقصد والاعتدال في كل شئ، وليس الكسل والتراخي والاستهلاك المُفرط والبحث عن اللذة. إن صور الفن المتوازن والذي يقتدي بهدي الوسطية الإسلامية، ورسالتها الثقافية الفنية السامية مدعاة لقيام فن أصيل ذو هوية، ورؤية ذاتية يحتاجها المشروع النهضوي والأنموذج الإنساني الذي ينتشل الإنسانية من أزمتها.

المراجع

[1]- د. نبيل راغب: النقد الفني، دار المعارف ، 1981م

[2]- بتصرف د. شاكر عبد الحميد: عصر الصورة.. السلبيات والإيجابيات، سلسلة عالم المعرفة: 311، يناير 2005م، الكويت.

[3]- متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

[4]- في الصحيحين من حديث عمران بن حصين.

[5]-أنظر: التصوير الفني للصحابة والأنبياء، مجلة الوعي الإسلامي ،العدد: 494، شوال 1427هـ، ص 10-15، الكويت.

[6]-انظر: منار الإسلام العدد: 384، ذو الحجة 1427هـ الإمارات.

[7]- قياسا علي دراسات عن الأدب الإسلامي"حسن الإمراني": سيمياء الأدب الإسلامي .. المصطلح والدلالة، مؤسسة الندوى/ المغرب.

[8]- أنظر: مدارس الفن في الحضارة الإسلامية، مجلة الوعي الإسلامي ،العدد: 496، ص 46، الكويت.

[9]- أنظر، مجلة الوعي الإسلامي ،العدد: 494، مرجع سابق.

[10]- بتصرف د.نعمات أحمد فؤاد.. "من عبقرية الإسلام"، دار المعارف، 1983، ص 112.

[11]- أحمد رفت: "الألوان في القرآن"، و"الرسم بالألوان في القرآن".

[12]- العمارة الإسلامية في مصر الإسلامية، م 1، ص 264-265.

الدلائل العقلية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم

د. على حسن الروبي



الحلقة الثانية (الدوافع والأسباب المفترضة وراء ادعاء النبوة)

إذْ قد فرغنا من الكلام على أخلاق النبي- صلى الله عليه وسلم- وسيرته قبل البعثة ومدى مركزيتها في الدلالة على صدق دعوى النبوة، فإننا سنعرج هنا على جانب آخر له تعلق بقضية الصدق والكذب في دعوى النبوة، ألا وهو الدوافع والأسباب التي يمكن أن تحمل صاحبها على اختلاق دعوى النبوة، وهل هي موجودة في حال النبي محمد صلى الله عليه وسلم أم ليست موجودة؟

فمعلوم على أن المقْدِم على دعوى كاذبة خطيرة كادعاء النبوة لا بد أن يكون له من الدوافع والأسباب الحاملة له على الولوج في هذا الأمر الخطير، بل تلك الدوافع لا بد أن تكون متناسبة مع أعباء هذا الادعاء وما سيلقاه صاحبه من تحدياتٍ، وما سيبذله من تضحياتٍ.

إن مجازفة ادعاء النبوة كذباً جريمةٌ ليست سهلة التنفيذ ولا سهلة التبعات ولا مأمونة العواقب ولا عارية من المخاطر ولا خالية من التضحيات الكبرى، بل هي كالسرقات الكبرى التي لا يقدم عليها إلا المجرم المحترف المغامر الطموح، وهو يعلم ما يكتنفها من أهوال ومخاطر ومصاعب، وما سيتبعها من نتائج، وأنها إما أن يكون فيها تغيير حياته إلى الغنى والثروة وإما أن يكون فيها حبل المشنقة، أو ظلام السجن حتى الموت.

إنّ كل ذي عقل صحيح سليم يجبره عقله على التفكر والتأمل في عواقب الإقدام على هذه المجازفة الخطرة وما سيجنيه منها من أرباح وما سيدفعه في سبيلها من كلفاتٍ، فيقدم ويضحي إذا ظنّ أن الأرباح أكثر، ويحجم إذا ظن أن جانب الخسائر أكثر، ولا يهمل تلك الحسابات والموازنات إلا الحمقى البيّن حمقُهم أو المجانين البيّن جنونُهم.

وإنّ سيرة محمد صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها= لقاضية برجاحة عقله وكمال فطنته، ومن ثَمَّ فلا يبقى على إقدام عاقل مثله على ادعاء النبوة — إن كان كاذباً في ادعائها- إلا أن تكون له من الدوافع والأسباب ما يجعله يجازف ويغامر بسمعته وشرفه بين قومه ويعرّض نفسه لويلاتٍ وتهلكاتٍ يستغني العاقل عن إيراد نفسه مواردها بلا مقابلٍ ولا عائدٍ.

فما تلكم الدوافع والأسباب التي يمكن أن تقف وراء ادعاء النبوة كذباً في حق رجلٍ تام العقل والفطنة والفضائل كمحمد صلى الله عليه وسلم؟

لا يخلو ادعاء النبوة كذباً أن تكون أسبابه والبواعث عليه= تحقيق مطامع مالية أو تحقيق مطامع سلطوية.

وكلاهما — أعني البحث عن مطامع مالية أو مطامع سلطوية- من الدوافع التي لا تكون وليدة اللحظة، بل هما كغيرهما من أهداف الإنسان وتطلعاته وأحلامه= نتاج من نِتاج شخصيته وأخلاقه ومُثله وقِيمه وطريقة تفكيره ونظرته للحياة ومعايير النجاح والفشل فيها.

وإذا كان كذلك، فإننا نقول إن تطلعات الإنسان وأحلامه وطموحاته هي نتاج طبيعة شخصيته وأفكاره وأخلاقه، وهي كذلك أسبابٌ لتكوين أخلاقه وتشكّلِها بما يتوافق مع تلك الطموحات والمطامع والأحلام.

فصاحب طبعِ الطمع والجشع المالي الغالب على شخصيته أن يحمله ذلك الطبع والخلق على أن يلهث وراء المطامع المالية متى لاحت وأين لاحت، ولا يحجزه عن الوصول إليها حاجز من مشقةٍ أو مكارم أخلاقٍ حتى يصل إلى تلك المطامع أو ييأس من الوصول إليها. وفي ذات الوقت فإن استمرار مطاردة الإنسان للمطامع المالية ولهثها خلفها يعزّز عنده خُلق الطمع ويقويه ويؤصله عنده بحيث يغلب عليه ويصبح هذا الخُلق القوي المتأصل قادراً على توليد مطامع مالية جديدة عند صاحبه.

وهذا شأن جميع الأخلاق فاضلة كانت أو قبيحة؛ فممارسات الشخص للأعمال المواتية لأخلاقه هو نتاج لتك الأخلاق وهو كذلك باعث على تعزيز تلكم الأخلاق عنده وتقويتها. فهي علاقة تفاعلية كما أن الإيمان بالله تعالى يحمل أصحابه على التزود من الأعمال الصالحة، والتزودُ من الأعمال الصالحة يقوّي الإيمان في قلوب أصحابها.

نعود إلى قولنا إن المطامع المالية والسلطوية لا تكون وليدة اللحظة عند الشخص، بل هي نتاج شخصيته وأخلاقه وأفكاره. فإذا نظرنا إلى شخصية محمد -صلى الله عليه وسلم- فهل

نجد في أخلاق هذه الشخصية وسيرتها ما يدل على وجود المطامع المالية والسلطوية فضلاً عن رسوخها وغلبتها عليه حتى يكون ادعاء أمرٍ عظيمٍ خطيرٍ، كادعاء النبوة كذباً، هو أحد أعراض تلك المطامع المالية والسلطوية وأبرز تجلياتها؟

إن صاحب المطامع المالية أو السلطوية لا ينفك عنه ذلك الخُلق ولا يقدر على كتمانه مهما حاول إخفاء ذلك، بل إن واقع الافتراض يقول: إن الباحث عن المال المتستر في بحثه عنه خلف دعوى قيمية أخلاقية هو كاذب فيها= سيكون مُراده الأول والأخير هو الوصول إلى تحقيق أهدافه المالية، ومتى انفتح أمامه الطريق إلى تحقيق أحلامه المالية سيسرع في ركوب تلك الطريق وعدم الحيدة عنها، غاية ما هناك أن يراوغ ويخدع مَن حوله أنه لا يفكر في المال وأنه ليس من غايته الأصيلة، أما اكتنازه المال وتضخيم الثروة = فأمرٌ لا بد من حصوله منه متى أتيحت أسبابه، وإلا كان وصفنا لإنسانٍ ما بأنه حريصٌ جشعٌ طماعٌ ونحو هذه الأوصاف= ضرباً من العبث إذا كان هذا الشخص الموصوف بتلك الصفات لا يبالي بالمال إذا حصل له، بل لا يبالي بجمعه ولا يسعى في تحصيله.

وبتنزيل هذا التقرير على ما نحن بصدده من شأن افتراض وجود مطامع مالية أو سلطوية خلف ادعاء النبوة كذباً، نقول:

لقد أوقفنا القارئ الكريم في المقالة السابقة على أخلاقه صلى الله عليه وسلم وطبائع شخصته وما اشتهر به بين قومه قبل البعثة، وأنها كانت على الغاية في الكمال الخلقي بحيث إننا لم نجد خصومه الذين سعوا في إلحاق الضرر به بكل طريقٍ يعثرون في سجلات ماضيه الأخلاقية على ما يمكنهم تعييره به والتشنيع عليه بسببه، ونضيف هنا تأكيداً بخصوص تلك " الأطماع المالية المفترضة" أنها لو كانت تلكم المطامع موجودة عنده ومتأصلة في شخصيته= فإنه لا بد أن يكون لها ظهور على تصرفاته وأفعاله كما أسلفنا في العلاقة التلازمية بين أخلاق الشخص وتصرفاته.

ذلك أنه لو كان الطمع عموماً والطمع المالي خصوصاً خلقاً أصيلاً في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم= لا نعكس ذلك على تصرفاته وأفعاله قبل البعثة ولَوُجِد منه ما يدل على ذلك، ولكانت أقرب تهمة يتهمها به الخصوم، مثلاً، أن يقولوا: " أيها الحريص الجشع، هل تذكر حين وقعتْ منك الخزية الفلانية بسبب جشعك وطمعك"؟

لكن شيئاً من ذلك لم يقع، ولسنا كذلك نجد في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم قبل دعوى النبوة ما يدل على لهثه وراء الأموال أو سعيه في تجميعها من كل طريق، بل نعلم إنه عاش صباه راعياً أغنامَ عمه ثم مساعداً له في التجارة ثم مُشرفاً على تجارة خديجة– رضي الله عنها– حتى اختارته زوجاً لأمانته ولما توسمت فيه من نبيل الأخلاق وكريم الشمائل، وهي صورةٌ مغايرةٌ ومباينةٌ لصورة الرجل المولع بجمع المال واكتنازه حتى يحمله هذا الولع على افتراء واختلاق فِرية كبرى لم يسبقها أحدٌ من قومه أو أسلافه إلى اختلاقها وافترائها.

فهذه شواهد (قَبْلية) على عدم صحة هذا الافتراض وعدم إمكانية وجوده أصلاً، ولو أغضينا الطرف عن تلك الشواهد، وتنزلنا مع هذا الافتراض (وجود أطماع مالية وراء دعوى النبوة)، فإننا لا بد أن نتسائل: أين الشواهد (البَعْدية) واللاحقة على صحته؟ وأين تجلياتها؟ فأما في المرحلة المكية للدعوة وهي ثلاثة عشر عاماً، فلا نجد فيها إلا الخسائر المادية الكاملة التي لحقت بمحمد صلى الله عليه وسلم، فمنذ أن بدأ دعوته ترك العمل بالتجارة وتفرغ تفرغاً لدعوته، وكان الكتاب الذي يقول إن الله تعالى أنزله عليه يأمره بأن يقول للمدعوين الذي يخاطبهم للإيمان بدعوته {لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِ} [الأنعام: 90] ويكرر عليه ذلك بين الفينة والفينة. ثم لم تنته تلك المرحلة إلا عن حصار اقتصادي وعزل اجتماعي جائر ضد محمد صلى الله عليه وسلم وعشيرته كعقوبة قرشية لبني هاشم وبني المطلب لعدم تسليمهم محمداً صلى الله عليه وسلم للزعامة القرشية تقضي فيه قضاءها.

وبكل حال فالمرحلة المكية من الدعوة لم تكن موضعاً لتحقيق الطموحات المالية إن كان محمد صلى الله عليه وسلم لديه شيء من ذلك، بل كانت موضعاً لتجسد الأضرار المادية والمعنوية له ولأتباعه أيضاً.

ثم لننتقل إلى المرحلة المدنية حيث بدأ صلى الله عليه وسلم في تأسيس دولة جديدة، وتغيرت كليةً الأوضاع التي كان يعيشها هو وأصحابه في مكة من الاضطهاد والتعذيب والخوف والمحاربة، وصارت للمسلمين دولة وغزوات وأموال، ونصطحب معنا سؤالنا: هل شهدت تلك المرحلة من حرص محمد صلى الله عليه وسلم على جمع المال واكتنازه أو التوسع في الثروة والزيادة في الممتلكات ما يمكن جعله شاهداً على صحة افتراض وجود دوافع مالية وأغراض مادية كانت هي السبب في فرية ادعاء النبوة خلافاً للواقع ونفس الأمر؟

من المؤسف جداً أن مفترض هذا الافتراض لن يجد من شواهد تلك المرحلة — أي المرحلة المدنية– إلا ما هو ضد ذلك الافتراض ونقيضه، فإن المنقول إلينا من سيرة محمد صلى الله عليه وسلم في تلك المرحلة أنه منذ وصوله إلى المدينة وحتى وفاته كان مسكنه هو حجرات متواضعة، منخفضة السقف، في كل حجرة منها تسكن زوجة من زوجاته، ولم يتخذ المنازل الواسعة الجميلة فضلاً عن القصور ذات الخدم والحشم.

وظل محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن تتحسن الأوضاع الاقتصادية للمسلمين في المدينة وبعد أن تحسنت وفُتحت الدنيا على أصحابه، ظل محمد –صلى الله عليه وسلم– على حالة واحدة من التقلل من الدنيا، وحالةٍ واحدةٍ من الفقر وقلة ذات اليد؛ حتى إنه حتى موته لم يشبع من الخبز الجيد، وكان يمر الشهر والشهران لا يجد أهل منزله من الطعام ما يوقدون عليه النار، وكان يسأل أهله في الصباح عن الطعام فإن وجد أكل وإن لم يجد شرع في الصوم!

وكان ينام على سرير له سيور تؤثر في ظهره حتى يرثي أصحابه له، والمنقول في هذا الشأن كثيرٌ مطردٌ متواترٌ دالٌ على مدى التقشف والفاقة والبُعد التام عن الثراء المالي أو التنعم الدنيوي، بل قد مات محمد –صلى الله عليه وسلم– وقد رهن درعه عند رجل يهودي مقابل طعام يشتريه لأهله!

كل ذلك كان محمد –صلى الله عليه وسلم– يعيشه ويحياه، وهو هو نفس الرجل الذي سأله سائلٌ بعد حصول غنائم إحدى الغزوات فأعطاه أعداداً كبيرة من الأغنام تملأ ما بين جبلين، وهو هو نفس الشخص الذي يقف بعد غزوة حنين فيعطي رموز العرب وساداتهم المائة من الإبل لكل واحدٍ منهم، وتجتمع حوله الجموع الكثيرة تسأله بإلحاح وإكثار ليعطيهم من الغنائم حتى تلجئه تلك الجموع إلى شجرة يتعلق رداؤه بها فيعلن لهم كلمته الشهيرة(لن تجدوني بخيلاً ولا كذاباً)!

يخرج محمد صلى الله عليه وسلم بعد هذه الغنائم واقتسام الأموال الهائلة خالي الوفاض ويرجع إلى بيته ويمارس حياته السابقة فيجوع يوماً ويشبع يوماً ويجد الوجبة حيناً ويفقدها حيناً، هذا ولمحمد صلى الله عليه وسلم (نظرياً) الخُمس من الغنائم، لكن هذا الخُمس (النظري) كما أخبر هو بنفسه (مردودٌ على المسلمين) فيتحمل به الديون عن المدينين ويقضي به حاجات المحتاجين والسائلين، ولا يُبقي لنفسه ولا أهله بيته شيئاً.

فأين هي تجليات الدوافع المالية والاقتصادية التي كانت له وبسببها ادعى النبوة؟! ولماذا لم يحقق آماله وطموحاته المالية ويتخذ القصور ويحوز الملذات ويتنعم بالدنيا وقد واتته الفرصة لذلك بعد انفتاح الدنيا عليه وعلى أصحابه؟! ألم تكن تلك الغنائم الكثيرة التي كان يوزعها هنا وهناك =كفيلة بجعله من أثرياء العرب إن لم يكن أثراهم؟!

أين هي الكنوز وسبائك الذهب والجواهر والأحجار الكريمة التي تركها محمدٌ- صلى الله عليه وسلم- لورثته وقرابته؟! فلعل قائلاً يقول: كان يُقتر على نفسه ويجمع لورثته! إن التركة التي خلّفها ذلكم الرجل الذي يعطي الأموال يمنة ويسرة وكأنها ليست الأموال التي يعرفها الناس ويسيل لعابهم من أجلها، إن تركة ذلكم الرجل ما كانت إلا بغلته البيضاء وسلاحه، وأرضاً بخيبر جعلها لابن السبيل صدقة!!

وإذْ قد بدا لذي اللبِّ والإنصاف أن أي افتراض لوجود دوافع مالية وراء ادعاء النبوة ما هو إلا ضربٌ من الجهل والعبث، فلننتقل إلى الافتراض الثاني، ألا وهو افتراض وجود دوافع سلطوية كانت هي الحافز على ادعاء النبوة كذباً، وهنا نعيد التذكير بما أسلفناه في أول المقال بأن الأطماع المالية أو الأطماع السلطوية المفترضة إن كانت موجودة شخصٍ ما ثم حملته على اقتراف جريمةٍ نكراء في حق الله وحق الناس كادعاء النبوة كذباً= فهي (أي تلك الأطماع) مرض متأصِّل في أخلاق هذا الشخص، قد تمكَّن منه كل التمكن حتى دعاه إلى الوقوع في تلك الجريمة من أجل الوصول إليه، فلا بد أن تظهر أعراض هذا المرض على تصرفات الشخص وأفعاله، ويكون لها الأثر الكبير في اهتماماته وأولوياته.

وبناء على هذا فعلينا أن ننظر في سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل دعوى النبوة وبعدها، فلا ريب أن فيها ما يشهد على ذلك الافتراض بالبطلان أو يشهد له بالصحة، وقد تقدم القول عند معالجة الافتراض السابق أن سيرة محمد -صلى الله عليه وسلم- تدل على أنه نشأ راعياً للغنم في صباه ثم مساعداً لعمه في تجارته ثم عاملاً في مال خديجة- رضي الله عنه- والتي أصبحت زوجته بعد ذلك.

وليس في أيٍّ من الحوادث المنقولة لنا قبل البعثة ما يشير إلى بحثه عن سلطة وسيادة، فلا نجد له أي محاولة من المحاولات التي يمكن أن نقول عنها إنها كان الخطوة الأولى منه على طريق تحقيق أحلامه في السيادة والوصول إلى السلطة، لا نجد أي خبر يدل على ذلك، حتى لو

كانت محاولة للوصول إلى سيادة قبيلته (بني هاشم) فضلاً عن سيادة قريش بأكملها، فضلا عن العرب بأجمعهم.

ذلك أن الذي يدعي النبوة كذباً وبهتاناً ويقول للناس إنه رسول لا لقريش وحدها ولا للعرب فقط، بل للعالم أجمع= لهو شخصٌ مريض بحُبِ السلطة مرضاً قوياً قد تمكن منه واستولى على تفكيره حتى أوصله إلى ما يشبه أحلام اليقظة في التفكير وأبعده عن حقائق الواقع العربي وأنساه سنن الحياة من حوله.

أليس من الطبيعي أن ذلك الشخص المريض بحب السلطة والمهوس بها هوساً جنونياً، حمله على دعوى النبوة كذباً = تكون له محاولات سابقة على ذلك الادعاء للوثوب إلى السلطة والسعي إليها؟

إننا لا نعرف من سيرة محمد –صلى الله عليه وسلم– فيما يتصل بالشأن العام إلا أنه حضر وهو غلامٌ مع أعمامه حرب الفجار، وأنه شهد حلف الفضول لنصرة المظلوم في دار عبد الله بن جدعان، كما شهده غيرُه من الرافضين للظلم والساعين لنصرة المظلوم، حتى حادثة وضعه الحجر الأسود عند إعادة بناء الكعبة، حينما تنازعت القبائل فيما بينها على مَن هو الجدير بحيازة هذا الشرف، لم يكن ذلك الشرف الذي ناله عن سعيٍ منه في الوصول إليه ولا لأنه وقتها كان من زعامات القرشية المشتهرة، بل وقع ذلك قدراً عندما اقترح مُقترحٌ أن يكون تحاكم المتنازعين إلى أول داخل من باب المسجد الحرام، وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– هو ذلك الداخل، فاقترح عليهم وضع الحجر الأسود على ثوب لتتشارك كل القبائل في حمله، حتى إذا رفعوه قام هو بوضعه في موضعه. ولم يكن رضاهم بمقترحه ناتجاً عن مكانة سيادية له بينهم، وإنما كان لما هو مشتهرٌ به من حُسن الخلق وسلامة النفس والبُعد عن الخصومات والعداوات بحيث لم يكن بينه وبين أحدٍ ما يشنؤه لأجله.

فإذا ما تركنا مرحلة ما قبل البعثة وفتشنا في المرحلة المكية بعد البعثة= فإننا سنجد فيها –فيما يتعلق بتحقيق الآمال السلطوية– نظيرَ ما وجدناه فيها بالنسبة لتحقيق الآمال المالية إن كان لواحدةٍ منهما وجود على الحقيقة، فلقد كان المرحلة المكية مرحلة الصراع غير المتكافئ مع قريش، ولم يكن أمام محمد –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه سوى الصبر على الأذى القرشي واحتمال التنكيل والمضايقات وسائر أصناف الإيذاء والمضايقات.

إن تلك المرحلة لا تمثل انعداماً لتحقيق أية تطلعات سلطوية فحسب، بل إنها كانت بمثابة التضييع للوجاهة الاجتماعية والشرفِ الذي كان قد حازه النبي –صلى الله عليه وسلم– بنسبه الهاشمي الباسق في قريش وبكماله الخُلقي الذي زاده شرفاً في قومه إلى الشرف المكتسب بالنسب والوارثة. إننا سنجد محمداً – صلى الله عليه وسلم– ذا الهيبة الأخلاقية والوجاهة القبلية يتعرض لأصناف من الإيذاء والشتم والسخرية وما شاكل ذلك مما لم يتعرض له في حياته من قبلُ قطُّ، بل لم يكن يقع مثلها لآحاد الناس ممن هم دونه في الشرف والمنزلة بمراحل، إنها أذية لا يتعرض لمثلها إلا أولئك الذين ضعف شأنهم جداً بين الناس فلا يؤبه لهم لهوانهم على الناس أو هوانهم على أنفسهم، وفوق ذلك فإنّ تلك الأذية الحاصلة لمحمد – صلى الله عليه وسلم– تأتيه من أعيان قريش وأشرافها كما تأتيه من رعاعها وغوغائها، فلقد كانت الدعاية القرشية تقنع الرأي العام المكي بأن الرجل قد جاء بما يتوجب معه استباحته كل الاستباحة والتفنن في النيل منه بكل سبيل.

أفلم يكن جميع ذلك مما لقيه محمد –صلى الله عليه وسلم– طيلة ثلاثة عشر عاماً زاجراً له عن الاستمرار في الكذب المزعوم ومجبراً له على التراجع عن تلك الأهداف والأحلام السلطوية المفترضة؟!

ثم إننا إذا تركنا المرحلة المكية وولجنا إلى المرحلة المدنية التي تغيرت فيها حياة محمد –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه، وأصبح للمسلمين شوكة ودولة، وهنا قد يقول القائل الذي افترض أن الأحلام السلطوية الشخصية هي التي تقف خلف ادعاء النبوة كذباً: إن المرحلة المدنية تصلح أن تكون مرحلة جني ثمار وتحقيق لتلك الأحلام فلقد صار محمد (صلى الله عليه وسلم) هو رأس الدولة الناشئة والآمر الناهي فيها بحيث لم يعد أحدٌ ينازعه في تلك المكانة ولا يقاربه فيها.

فنقول: إن الشواهد لتدلنا على أن المرحلة المدنية وإنْ كانت قد أعطت محمداً –صلى الله عليه وسلم– من السلطة والمكانة ما لا مرية فيه ولا جدال، إلا أن تلك الشواهد لتدل كذلك على أن محمداً –صلى الله عليه وسلم– لم يكن مُلتفتاً إلى ما يلتفت إليه الباحثون عن السلطوية فضلاً عن المهوسين بها حدَّ الجنون؛ فإننا قد سبق أن أشرنا إلى أن الهوس بالمال والهوس بالسلطة أمراضٌ لا بد من ظهور أعراضها على أصحابها. والقارئ يقف بنفسه يومياً

على صحة ذلك عبر ما يلمسه من تصرفات بعض الناس من حوله والتي تنادي بأعلى صوتها على هوس أصحابها بالسلطة أو بالمال أو بالشهرة والصيت.

وأنت– أيها القارئ– إذا نظرت في سيرة محمد –صلى الله عليه وسلم– في المرحلة المدنية= لم تجده شيّد قصراً يمارس فيه مظاهر السلطوية، ولا حتى اتخذ مجلساً خاصاً بذلك على عادة أهل الرياسة والزعامة، ولا كان الرجال يقفون عند رأسه وهو جالس على الطريقة المعتادة عند الملوك وأهل الإمارة، بل لم يكن يتميز عن جلسائه بأي مظهر من مظاهر التميز حتى إن الأعرابي الغريب كان يدخل عليه وعلى أصحابه المجلس فيسأل: أيكم محمد؟!، وكان ينهى أصحابه عن القيام له إذا دخل عليهم، وكان يشتري حاجته من السوق بنفسه، ويساعد أهل بيته في مهنتهم إذا لم يكن عنده ما يشغله، وكان الأَمة من جواري المدينة تأتي فتأخذ بيده وتذهب به حيث شاءت ليساعدها في بعض المهام التي طُلب منها تنفيذُها! ورأى صاحبه معاذ بن جبل طريقة تعامل الناس مع أمرائهم وملوكهم في الشام وأنهم يسجدون للملك عند الدخول عليه، فحاول نقل تلك العادة إلى مجتمع المدينة فسجد للنبي –صلى الله عليه وسلم– عند لقائه به كنوع من التحية فنهاه عن ذلك...إلى غير ذلك من عشرات التصرفات والأفعال التي تقطع ببُعد صاحبها عن السلطوية وعدم اكتراثه بها فضلاً عن أن يكون مهوساً بها هوساً دعاه إلى اختلاق فرية النبوة؛ سعياً وراءها وطلباً لتحصيلها.

وبعد؛

فقد ظهر بيّناً أن افتراض وجود دوافع وأغراض مالية أو سلطوية تقف خلف ادعاء محمد –صلى الله عليه وسلم– النبوة كذباً= لهو ضربٌ من الافتراض من أبعد ما يكون عن العقل، ومن أشد ما يكون مجانبة للصحة والحقيقة، وأنه سيرته وأخلاقه وسيرته قبل البعثة وبعدها ليس فيها إلا ما يشير إلى ضد ذلك الافتراض ونقيضه ومقابله، وما يجعل ذلكم الاحتمال ضرباً من الكذب والتخرص.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(منهجيّةٌ مقترحةٌ لدراسةِ مادّةِ التفسير في مرحلةٍ مدرسية)

د. محمد داود السواتي

بسم الله.. الحمد لله، والصلاةُ والسّلامُ على رسول الله، وبعد،

فمعلومٌ أنّ كلّ مطلوبٍ له طريقٌ يُوصِلُ إليه، وهذه قاعدةٌ أجمعت عليها الأممُ قاطبةً؛ فمن رامَ شيئاً من الأمورِ الحسّيّةِ أو المَعنويّةِ لا بدَّ أن يسلُكَ طريقاً يُفضِي به إليه، وجادّةً تدلُّه عليه، ولمّا كانَ العلمُ مطلوباً معنوياً فإنّ له جادّةً توصِلُ إلى كُلّ فَنٍّ منه، وإذا تقرَّر هذا فأقولُ: إنّ معرفةَ تفسيرِ كلامِ الله سبحانه وتعالى لها طريقٌ تُوصِلُ إليها، وتُفضي بِسالكِها إلى الإحاطةِ بِعلمِ التّفسير، ومن رامَ العلمَ بغيرِ جادّةٍ انتهى إلى غيرِ فائدةٍ.

وفيما يلي: بيانُ بعضِ الأساليبِ والطرُقِ الفعّالةِ في تدريسِ مادّةِ التّفسيرِ، وتحبيبِها إلى قلوبِ الطّلابِ، مع إلماحةٍ بسيطةٍ للمَباحثِ المتعلّقةِ بالقرآنِ الكريمِ، والتي لا بدَّ للمعلّمِ من تناوُلِها ودراستِها بصورةٍ منتظمةٍ، إضافةً إلى أنّ كلّ ما أذكرُه هنا أغلبُه يؤُولُ إلى تكوينِ المَلكةِ التفسيريّةِ؛ وعليه فالمنهجُ غيرُ غاضعٍ لأيّ جهةٍ خاصَّةٍ، أو نوعيّةٍ خاصّةٍ، بل هي تتشكّلُ في تجسيدِ المكلةِ والإثراءِ التّفسيريّ.

على أنّ هذه الأساليبَ ووضع المعاييرِ المساعدةِ على تحقيقِ الجودةِ العِلميّةِ التفسيريّةِ فيها يعينُ –بإذن الله– على تأهيلِ عددٍ من الطّلابِ ونخبةٍ حَسنةٍ من طلابِ العلمِ يُحسِنونَ إعدادَ البُحوثِ التّفسيريّةِ ينطلقُونَ من خلالِها إلى الدّعوةِ إلى الله عزَّ وجلَّ بتبليغِ معاني القرآنِ، وبيانِ الهدى للنّاسِ انطِلاقاً من هدي القرآنِ الكريم.

هذا، وقبلَ كلِّ شيءٍ يجِبُ تحديدُ مستوى الطّلابِ؛ فيتأكّد المعلّم من أنّ كلَّ ما يتعرّضُ له المعلّمُ في حلقةِ الدّرس يستوعِبُه من هو له أدنى مستوى عِلميٍّ، ومعلومٌ أنَّ مخاطبةَ العامّة أو طلابِ العلم بما يكفيهم ويشفيهم مطلبٌ مهمٌّ؛ فإنّ المقصُودَ بأساليبِ التّفسيرِ هنا: طرُقُ تبليغِ معاني القرآنِ للمتلقّينَ، وتقريبُها لهم بما يناسبُ حالَ المخاطبينَ ومقامَ الحدِيثِ.

الأمرُ الأول: يحسنُ في بدايةِ الدّرسِ أن يبتدئَ المُعلمُ بالكلامِ على مفرداتِ الآيةِ التي يفسّرِها لفظةً لفظةً فيما يحتاجُ إليه من اللُّغةِ والأحكامِ النحويّةِ لتلك اللفظةِ قبل انسجامِها في التركيبِ.

الثاني: ثم ينتقل إلى مرحلةِ ذكرِ سببِ النّزولِ، وارتباطِ الآيِ بما سبقَ بطريقةٍ مختصرةٍ، مع بيانِ تحديدِ مقاصدِ الآيِ، وبيانِ أغراضِها، على أنّه لا ينبغي ذكرُ ما لا يصحُّ من أسبابِ النُّزولِ، أو وجوه الارتباطِ والمناسبةِ بينَ كلِّ آيةٍ وآيةٍ إلا إذا كان لها كبيرُ أثرٍ في توجيهِ المعنى المراد.

الثالث: ثم يشرعُ في تفسيرِ الآيةِ ويبينُ المعنى الإجماليّ العامَّ الحاصل من مضمون الآيةِ.

الرابع: ثمّ ينتقلُ إلى مرحلةِ التّفسيرِ التفاعليّ، وذلك بأن يكلّفَ الطّلابَ بالبحثِ عن الكلماتِ الواردةِ في السّورةِ بأكمَلِها أو من خلال مقطعٍ بسيطٍ، مع إيقافِهِم على كتبٍ مؤلّفةٍ في هذا البابِ، على سبيلِ المثال كتاب العلامة السّمين الحلبيّ المسمّى بـ: عمدة الحفاظ في تفسيرِ أشرفِ الألفاظ، أو مفرداتِ الراغبِ، أو المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل لألفاظِ القرآنِ الكريم للعلامة حسن حسن جبل، شريطةَ أن يعيّنَ المعلمَ الكلماتِ المطلوب البحثُ عنها حتى لا يبقى الطالبُ حائراً.. على أنّه من الأفضلِ أن يقوم المعلّمُ بتحليل هذه الكلماتِ قبلَ أن يحْضُرَ في حلقةِ الدّرس؛ للاستِعانةِ بذلك إذا لم يورد الطالبُ المعنى المراد، أو المعنى الذي لا يُؤيّده المقام، أو لا يدلُّ عليه ظاهرُ اللّفظِ.

الخامس: الأنسبُ أن يكلَّفُ طلابُ الصّفِّ الرابعِ بقراءةِ حاشيةِ الطيبيّ على الكشافِ، أو تفسير أبي السّعود، وطلاب الصّفِّ الثالث بقراءةِ: مدارك التنزيل وحقائق التّأويل للإمام النسفي أو تفسير العلامة السّعدي، وأما طلابُ الصفِّ السادس فليكلّف كلٌّ منهم بقراءةِ حواشٍ مستقلّةٍ مكتوبةٍ على تفسيرِ الجلالين.

والتفسير المقترحُ (من وِجهةِ نظرِ الكاتب للدّارسينَ بالصّفِّ الثاني) كتابُ صفوةِ البيانِ لمعاني القرآن، للعلامة حسنين مخلوف، والكتاب هذا وإن كان مستواه عاليا إلا إذا كان الأستاذُ فعّالا فلن يواجهَ الطّلابُ مشكلةً في حلِّ عباراتِ ومقاصد الكتاب، خاصَّةً إذا كان الأستاذُ خبيرا بمنهج صاحبِهِ في التفسير.

السادس: ومن المهمّ جدا أن يعتني الأستاذُ بالجانب التطبيقيّ، بحيثُ إذا ذكر معاني كثيرة لكلمةٍ واحدةٍ فالأنسب أن يضيفَ إلى هذا البحثِ بيانَ المعنى المراد المفهوم من عموم الكلام، وهو الجانبُ الذي يبحثُ فيه عن الأشباهِ والنّظائرِ الواردةِ في النصِّ القرآنيّ.

السابع: الاهتمامُ بالصّناعةِ النّحويّةِ وبيان الوجوه الإعرابيّة التي لها أثرٌ مباشرٌ في تغييرِ المعاني، وتحديدِها.

الثامن: يحسنُ بالمعلم أن يُعْنَى بالجانبِ البلاغيّ التطبيقيّ، بحيثُ يكشِفُ وجوهَ البلاغةِ وأسرارَ البيانِ، ويربطُها بإعجازِ القرآنِ، وأن يشيرَ إلى ذلك في مواضعَ متفرّقةٍ من القرآنِ حسبَ وُرودِ الآياتِ، وهذا هو المعبّرُ عنه بالأسلوبِ البيانيّ، وهو أسلوبٌ قائمٌ على الكشفِ عن حسنِ بيانِ القرآنِ، ولطائف دلالة الألفاظِ على المعاني الجليلةِ، وأسرارِ اختيارِ بعضِ الألفاظِ، والتراكيبِ على بعضٍ.

العاشر: وأن يركّز تركيزاً كاملاً على إيضاحِ الآيات، وكشفِ المبهمات التي أطلقُ عليها عنوانُ مشكلاتِ القرآنِ، كقولِه عزّ وجلّ: (إلا إذا تمنى ألقى الشيطن في أمنيتِه)، وقولِه سبحانه: (كلاّ لما يقضِ ما أمره).

الحادي عشر: من الأنسب أن يتيح الأستاذ للطلابِ تقديمَ معاني بعضِ الآياتِ القرآنيّةِ، بشرطِ أن يكونَ ذلك في حضرةِ المعلّم والطالبُ يشرحُ، وأفضلُ طريقةٍ لذلك أن يوزّعَ الطلابَ على جماعاتٍ، ويحدّدَ لهم الآياتِ للمناقشةِ فيها في حضرةِ المعلّم، وإذا أخطأ الطلابُ الصّوابَ بَيّنَ لهم المعلّم وجهَ الصّوابِ في الآياتِ، وهذه الطّريقةُ التفاعليّة أفضلُ من التلقينِ المباشر من وُجوهٍ ثلاثة: أولاً: أنها تثبّتُ المعلومةَ. ثانيا: تُورثُهم الملكةَ التفسيريّة بصورةٍ تِلقائيّة. ثالثا: أنّ التعلّمَ من السّهوِ والخطأ أفضلُ من التعليمِ والإلقاءِ المباشرِ، وهذا مما يمكن أن نسمّيه بالأسلوبِ الاستنتاجيّ الذي يَعتمد على استنباطِ الفوائدِ والأحكامِ واستخراجِها من الآيات القرآنيّة.

وعلى الوجهِ العام أنّ هذا الأسلوبَ فيه تمرينٌ ذِهنيٌّ حَسنٌ، وإعمالٌ للأدواتِ العِلميّةِ التي تُستخرجُ بها المسائلُ والفوائدُ والأحكامُ، ويُعينُ على تنميةِ ملكةِ الاستنباطِ وتقويمِها، ويُقوّي نظرَ الطالبِ، ويزيدُ من تفطّنِه لمآخذِ الأقوالِ، وعِلَلِها، وتقريرِ الاستدلالِ لها ونقدِها.

الثاني عشر: يحسنُ التعرضُ لبيانِ القراءاتِ المختلفةِ إن كان لها أثرٌ كبيرٌ في تغييرِ المعاني.

الثالث عشر: لا ينبغي إعادة الكلامَ في لفظٍ سبقَ ذكره، ولا في جملةٍ ولا في آيةٍ بل يذكرُ في كثيرٍ منها الحوالةَ على الموضعِ الذي تكلّمَ فيه على تلك اللفظةِ أو الجملةِ أو الآية، وأن يضربَ عن كثيرٍ من قصص المفسّرينَ وأخبارِ المؤرّخينَ إلا ما لا بدَّ منه، ولا غنى عنه للتّبيين.

الرابع عشر: ومن الأفضلِ أن يطالبَ المعلِّمُ الطّلاب بكتابةِ رسالةٍ مستقلّةٍ صغيرةِ الحجمِ على منهاجٍ تقريريٍّ علميّ بعد نهايةِ كلِّ شهرٍ، مع ضرورةِ أن يذكرَ لهم الأستاذُ العناصرَ الرئيسيّةَ التي ينبغي تسليطُ الضّوءِ عليها.

هذا بصفةٍ خاصّةٍ، وأما بصفةٍ عامّةٍ، فالأول: –وهذا مما يتعلقُ بطلابِ الصفّ الثالثِ والرابع والخامس والسّادس– أن يكلِّفَ المعلّمُ الطّلابَ بقراءةِ مقدّماتٍ تفسيريةٍ –قبلَ البدءِ في مادّةِ التّفسير– عُنِيَ فيها أصحابُها بالحديثِ عن علومِ القرآنِ الكريمِ، وما يتّصلُ بالتّفسيرِ منها، وأوسعُ هذه المقدماتِ –سوى المقدماتِ العشرةِ للعلامة ابن عاشورٍ– مقدّمةُ الإمام القرطبيّ التي أفاضَ في الحديثِ عن هذه العلومِ حتى قاربَ حديثُه مائةَ صفحةٍ، وعمليّة القراءةِ هذه تستمرُّ إلى ثلاثةِ أيام، وفي اليومِ الرابعِ يُحضّرُ الأستاذُ ما قرأه في مختلفِ الكتبِ المتعلّقةِ بعلومِ القرآنِ، ويُمليها على الطلابِ بصورةٍ موجزةٍ في غُضونِ ثلاثةِ أيامٍ أو أربعةٍ –حسبَ ما تسمحُ بذلك ظروفُ المعلم–.

والثاني: أن يربطَ المعلّمُ تفسيرَ الآيةِ بالواقعِ الذي يعيشُه عامّةُ النّاسِ أو نوعيةٌ خاصّةٌ من أناسٍ يعتقدونَ اعتِقاداتٍ شبه البِدع والحوادثِ والمنكراتِ، سواء كانت من العامّة، أو من بعضِ المنسبينَ

إلى العلم أو من الحكامِ، وأن يلتمسَ علاجَها من آيات القرآنِ الكريمِ، فيشخّصُ الدّاءَ، ويصفُ الدّواءَ، وهذا هو الأسلوبُ المعبّرُ عنه بالتّفسيرِ الاصلاحيّ أو المقاصديّ.

والثالث: أن يكونَ للمعلّمِ وقفاتٌ وملاحظاتٌ مهمّةٌ مع نظرياتٍ خاطئةٍ وتوجيهاتٍ منحرفةٍ مشفوعة بتأييدٍ قرآنيّ، وأن لا يتعرّضَ لتفسيرِ آيةٍ فيها للمعتزلةِ أو الرافضةِ أو أيّ تيارٍ فكريّ منحرفٍ تأويلٌ أو تحريفٌ أو صرفُ اللّفظِ عن مدلُولِه الظّاهريّ إلا وبسطَ القولَ فيها، ووجّهها وناقشَها مع التّرجيحِ بينها بالإنصاف، والالتزام بالأمانةِ العلميّةِ فيها، حتى يبقى للآيةِ معناها الخاصّ، وأن يحملَ على محملٍ موافقٍ مع أصولِ الشريعةِ وقواعد الفن متجنّباً في ذلك العصبيّةِ المذهبيّةِ، بحيثُ إذا كان قد نُسبَ إلى أيّ مذهبٍ رأيٌ لم يقل به أكثرُ أصحابِه، وهم أبرياءُ من ذلك فليتحرز عن إيرادِ ذلك القول، وهذا ما يسمّى بأسلوبِ الحِجاجِ الشّرعيّ، الذي يرادُ به الانتِصارُ للحقّ، وبيان أوجهِ الردودِ على المخالفينَ، ودلالة القرآنِ على ما يحقُّ به الحقُّ، ويتبينُ به بطلانُ الباطِلِ..

ومن بابِ الأمانةِ العلمية أنّ كلّ ما ذكرتُه خلالَ مقالي هذا –سوى تجربتي الشخصيّة– أنّه مختارٌ مما كتبه الأستاذ فهد عبد الرحمن الرومي في كتابه: منهج المدرسة الأندلسيّة في التّفسير، (والكتاب عبارةٌ عن رسالةٍ ماتعةٍ فريدةٍ في مضمونها، تعرَّض فيها الكتاب لمنجيّةٍ مقترحةٍ لدراسةِ مادّةٍ التّفسيرِ في بيئةٍ أندلسيّة، وذكر فيها مدى تأثيرِ هذه المناهجِ في مؤلّفاتٍ ألّفها علماء أندلسيّون) وكتابَ أساليبَ التّفسيرِ، وكتابَ: طرق التفسير كلاهما للأستاذ عبد العزيز المطيري.

وهذه المنهجيّةُ تطبّقُ على أرضِ الواقعِ إن كان نصب عينيكَ تكوين الشّخصيات العلميّة، وتحبيب الكتب التي تُكسبُ الطّلابَ الدّقةَ العلميّةِ، وبالعكسِ من هذا فتابع أيّ منهجٍ شئتَ والنّتيبجةُ ستكونُ وفقها –أي: وخيمةً–.

هذا، وصلى الله وسلَّمَ وباركَ على نبيّنا محمد، وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ.

بقلم: محمد داود السواتي.

أستاذ بجامعة بيت السلام، كاتب وباحث في فنونِ اللغةِ وآدابِها.



الهجرة وأداء الأمانة

الباحث/عصام جمعة

من الأمور التي يحثنا عليها ديننا أداء الأمانة لما فيها من الأجر الكبير والثواب الجزيل ، و ما لها من الآثار الإيجابية على الفرد والمجتمع, وفي المقابل نهانا بل حرم علينا ديننا الخيانة لما فيها من الإثم الكبير, والآثار السلبية التي تعود على الفرد والمجتمع.

لقد علمتنا الهجرة النبوية درس عظيم في أداء الأمانة مع الناس جميعا حتى لو كانوا من الأعداء, اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي ضرب أروع الأمثلة في هذا الخلق الرائع, ولا خير فينا إن لم نعقل هذا الدرس ونعيه ونطبقه على أرض الواقع, فما احوجنا لهذا الخلق في زماننا هذا .

النبي والدعوة الى الأمانة

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يلقب بين قومه بالصادق الأمين وشهد له أعداؤه قبل أصدقاؤه على ذلك, فعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : أخبرني أبو سفيان : أن هرقل قال له : سألتك عن محمد ماذا يأمركم؟ فزعمتُ أنه أمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال هرقل وهذه صفة نبي(1) وكذلك أن المشركين رغم تكذيبهم لرسول الله ومحاربتهم ومحاولة قتله, لم يجدوا فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقًا فكانوا لا يضعون حوائجهم ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده صلى الله عليه وسلم, وهذا يدل على أن كفرهم وعنادهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفًا على زعامتهم وطغيانهم (2) وصدق الله العظيم ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

ويصف ابن هشام في سيرته ما حدث عند الهجرة فيقول" فلما رأى رسول الله مكانهم – أي الكفار على الباب– قال لعلى بن ابى طالب نم على فراشي وتسج ببردى هذا الحضرمي الأخضر, فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه , وأخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي عنده للناس وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء

يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته, حتى أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس ثم لحق برسول الله في المدينة (3).

لقد غرس رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابه واتباعه حب الأمانة وكره الخيانة في أحلك الظروف حتى مع الأعداء الذين تآمروا على قتله وقاموا بتكذيبه , فما كان للصادق الأمين أن يخون الأمانة أو ينشغل عن ردها إلى أصحابها في أصعب الأوقات .

مفهوم الأمانة في القرآن والسنة

إن أكثر الناس يقصرون الأمانة في أضيق معانيها وهو حفظ الودائع مع أن حقيقتها في دين الله أضخم وأثقل لذا فقد ذكرت في القرآن كصفة من صفات المؤمنين ، قال تعالى { والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون}(سورة المؤمنون: 8) قال القرطبي في تفسير الأمانة والعهد بأنه يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً.(4)

وقد أمرنا الله جميعا بأداء الأمانات , قال تعالى { إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل }(سورة النساء:58) والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس, وهذا ما اختاره الأمام الطبري وممن قال بأن الآية عامة , البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبي ابن كعب قالوا: الأمانة في كل شيء في الوضوء والصلاة والزكاة والجنابة والصوم والكيل والوزن, وأجمعوا علي أن الأمانات مردودة إلى أربابها: الأبرار منهم والفجار(5)

وفي حديث حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «وترسل الأمانة على جانبي الصرط»(6)

يقول الإمام النووي في شرح مسلم «وإرسال الأمانة والرحم على جانبي الصرط لتطالب كل من يمر على الصراط بحقهما فالأمانة حمل ثقيل أشفقت السموات والأرض من حملة قال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: 72].

قال ابن عباس : بأن الأمانة هي الفرائض, عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية , ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها , ثم عرضها على آدم

فقبلها بما فيها , وهو قوله تعالى{وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا} أي في عاقبة أمره.

وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود, وقال ابن مسعود : هي في أمانات: الأموال كالودائع وغيرها.(7)

فكن أمينا مع الله بأداء ما افترض عليك بأمانة وإتقان.

وكن أمينا مع النبي صلى الله عليه وسلم بطاعته والعمل بسنته.

وكن أمينا مع نفسك واعرف حقها من الإصلاح والتقوى و المجاهدة والمحاسبة.

وكن أمينا مع الناس, احفظ أموالهم ولا تأكلها بالباطل ولو خالفوك, ولو كانوا غير مسلمين, وأصدق النصيحة وأخلص المشورة, قال النبي صلى الله عليه وسلم " المستشار مؤتمن"(8).

ولا تخن جليسك ولا تفش سره فكم من حبال تقطعت ومصالح تعطلت لاستهانة بعض الناس بأمانة المجلس, فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس, مجلس يُسفك فيه دم حرام, أو مجلس يُستحل فيه فرج حرام, و مجلس يُستحل فيه مال من غير حق»(9).

كن أمينا في البيع والشراء والتجارة قال النبي صلى الله عليه وسلم " التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء"(10).

ومن معاني الأمانة

1- من معاني الأمانة وضع كل شيء في المكان الجدير به واللائق له فلا يسند منصب إلا لصاحبه المستحق له ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذي ترفعه كفايته إليها واعتبار الولايات والأعمال العامة أمانات مسئولة من وجوه كثيرة.

فعن أبي ذر قال قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال فضرب بيده على منكبي ثم قال يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدي الذي عليه فيها»(11)

2- من معاني الأمانة أن نصطفي للأعمال أحسن الناس قيامًا بها فإذا ملنا عنه إلى غيره لهوى, أو رشوة أو قرابه, فقد ارتكبنا بتنحيه القادر خيانة, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من استعمل رجلًا على عصابه وفيهم من هو أرضي لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»(12) وقد أرشدت السنة إلى أن توليه من لا يستحق من مظاهر الفساد الذي سوف يقع آخر الزمان وهو ضياع للأمانة, فقد جاء رجل يسأل رسول الله: متي تقوم الساعة؟ فقال له: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة فقال وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وسّد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة»(13).

3- ومن معاني الأمانة أن يحرص الموظف على أداء واجبة كاملا في العمل الذي يناط به, وأن يستنفذ جهده في إبلاغه تمام الإحسان, إنها من أعظم الأمانة أن يخلص الرجل لعمله وأن يعني بإجادته, وأن يسهر على حقوق الناس التي وضعت بين يديه, فإن التزم ذلك فهو عند الله من المجاهدين, قال النبي صلى الله عليه وسلم «العامل إذا استعمل فأخذ الحق وأعطي الحق لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته»(14).

أما استهانة الفرد بما كلف به وإن كان بسيطا, هو ضياع للأمانة حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة»(15) أي ليس أعظم خيانة ولا أسوأ عاقبة من رجل تولي أمور الناس فنام عنها حتى

أضاعها, ولذلك كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لا ينام بالليل ولا بالنهار فلما سُئل عن ذلك قال :"إذا نمت بالنهار أضعت حق الرعية وإذا نمت بالليل أضعت حق ربي".

4- ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذي عين فيه لجر منفعة إلى شخصه أو قرابته فإن التشبع من المال العام جريمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقًا , فما أخذ بعد ذلك فهو غلول» (16).

5- ومن معاني الأمانة أن تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك وإلى المواهب التي خصك الله بها وإلى أموالك وأولادك فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك فيجب أن تسخرها في قرباته, وأن تستخدمها في مرضاته, قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ , وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 27، 28] .

وللعلاقات الزوجية في نظر الإسلام قداسه فما يضمه البيت من شئون العشرة بين الرجل وامرأته يجب أن يطوي فلا يطلع عليها أحد مهما قرب, والسفهاء من العامة يثرثرون بما يقع بينهم وبين أهلهم من أمور حرّمها الله, فقد أخبر رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من أعظم الأمانة (17)عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»(18)

وعلى هذا تكون الأمانة شاملة لكل نواحي حياتنا وكل عمل يقوم به الإنسان فيه الخير والمنفعة للفرد والمجتمع وفي كل ما يعود على البشرية بالخير والسعادة.

عصام جمعة

باحث في الشريعة والقانون

الهوامش

(1) رواه البخاري.

(2) فقه السيرة, البوطي, ص 193.

(3) سيرة ابن هشام: ج2, ص 86.

(4) تفسير القرطبي: ج12, ص100.

(5) تفسير الطبري، ج5, ص221 وما بعدها.

(6) رواه مسلم.

(7) تفسير ابن كثير, ج6, ص 488.

(8) رواه الترمذي وصححه الألباني.

(9) رواه أحمد وضعفه الألباني.

(10) رواه الترمذي.

(11) رواه مسلم.

(12) رواه الحاكم.

(13) رواه البخاري.

(14) رواه مسلم.

(15) رواه مسلم.

(16) رواه أبو داود.

(17) أي أعظم خيانة الأمانة..

(18) رواه مسلم.

▪قَضَاءِ حَوَائِجِ المُسلمينَ وإغاثةِ الملهوفِ



▪بقلم فضيلة الشيخ أحمد على تركى
▪مدرس القرآن الكريم بالأزهر الشريف

الرسولُ ﷺ يُرَغِّبُ في قضاءِ حوائجِ المسلمين وفي إدخالِ السرورِ عليهم
.

ويُبيِّنُ النبيُّ ﷺ أنَّ الإنسانَ إذا أحسنَ إلى أخيه أحسنَ اللهُ إليه وإذا ما سعى في حاجةِ أخيه فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى يقضي حوائجَهُ .

عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال :

المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ مَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِهِ ومَن فرَّجَ عن مسلمٍ كُرْبَةً فرَّجَ اللهُ عنه بها كُرْبَةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ .

متفقٌ عليه

فمَن سَتَرَ مسلمًا سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامةِ ، ومَن فَضَحَ مسلمًا أو سَعَى في فضوحِهِ ؛ فَضَحَهُ اللهُ تبارك وتعالى–ط في الدنيا وعلى رؤوسِ الأشهادِ يوم القيامة .

يا معشرَ مَن آمنَ بلسانِهِ ولم يدخل الإيمانُ في قلبِهِ لا تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ ولا تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِهِم فإنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عورةَ أخيه تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ ومَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عورتَهُ ؛ فضحَهُ ولو في جَوْفِ بيتِهِ .

ويُبيِّنُ لنا النبيُّ ﷺ في حديثٍ حسنٍ فيقولُ :

ومَن مَشَى مع مظلومٍ حتى يُثبِتَ لهُ حقَّهُ ؛ ثَبَّتَ اللهُ قدَمَيْهِ على الصراطِ يومَ تزولُ الأقدامُ .

وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه كما في صحيحِ مسلمٍ وغيرِهِ :

مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ فِي الدُّنْيَا ؛ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ .

#قضاءُ_حوائجِ_المسلمينَ

وعن عبد الله بن عمروٍ رضي اللهُ عنهما قال :
قال رسولُ اللهِ ﷺ :

إنَّ للهِ عندَ أقوامٍ نِعَمًا أقرَّهَا عندَهُم .

يعني : جعلَهَا ثابتةً عندَهُم .

ما كانُوا في حوائجِ المسلمينَ ما لم يَمَلُّوهُم ، فإذا مَلُّوهُم نقلَهَا اللهُ إلى غيرِهِم .

حديثٌ حَسَنٌ أخرجَهُ الطبرانيُّ في المُعجمِ الكبيرِ .

فهذه النِّعَمُ التي جعلَهَا اللهُ تبارك وتعالى عند أقوامٍ إنما جعلَهَا مِن أجلِ أنْ يَقْضُوا بها حوائجَ المسلمينَ بشرطٍ :
ألَّا يَمَلُّوا مِن المسلمينَ ومِن طلبِهِم .

وألَّا يُصيبَهُم المَلَلُ في قضاءِ حوائجِ إخوانِهِم بِنِعَمِ اللهِ التي عندَهُم .
لأنَّ اللهَ إنما جعلَ تلك النِّعَمَ عندَ أولئك الأقوام مِن أجلِ أنْ يَقْضُوا بها حوائجَ المُسلمين ما لم يَمَلُّوهُم فإذا مَلُّوهُم نقلَهَا اللهُ إلى غيرِهِم .
#وعن عبد الله بن عُمَرَ رضي اللهُ عنهما قال :
قالَ رسولُ اللهِ ﷺ :

إنَّ للهِ أقوامًا اختَصَّهُم بالنِّعَمِ لمنافعِ العبادِ يُقِرُّهُم فيها ما بذلوهَا فإذا منعُوهَا نَزَعَهَا منهم فحَوَّلَهَا إلى غيرِهِم .

حديثٌ حَسَنٌ

وفي هذا الحديثِ يُبيِّنُ لنا نبيُّنَا ﷺ أنَّ أقوامًا اختَصَّهُم اللهُ تبارك وتعالى بالنِّعَمِ ليكونوا ساعينَ في منافعِ عبادِهِ في أرضِهِ ، ويُقِرُّ اللهُ تبارك وتعالى هؤلاء القومَ في تلك النِّعَمِ ما بذلُوهَا لعبادِهِ في أرضِهِ .

فإذا منعُوا النِّعَمَ أنْ تُبْذَلَ لأصحابِ الحاجاتِ وفي قضاءِ حوائجِ المُسلمينَ ؛ نَزَعَ اللهُ تبارك وتعالى النِّعَمَ عن أولئك القومِ الذين اختصَّهُم بالنِّعَمِ لمنافعِ العبادِ فحَولَّهَا إلى غيرِهِم .

ويُحَذِّرُ النبيُّ ﷺ ويُنذِرُ، ويُبَيِّنُ لنا ﷺ هذا الأمرَ الكبير فيقولُ ﷺ :

ما مِن عبدٍ أنعمَ اللهُ عليه نعمةً فأسْبَغَهَا عليه ، ثم جعلَ مِن حوائجِ الناسِ إليه فَتَبَرَّمَ ؛ فقَدْ عرَّضَ تلك النعمةَ للزوالِ .

يتَبَرَّمُ مِن الناسِ ويرُدُّهُم ولا يُحسِنُ استقبالَهُم وإنما يُصيبُهُ المَلَلُ فيُعرِضُ عنهم ويُغلِظُ في الكلامِ الواصلِ إليهم ويَخْشُنُ في معاملتِهِ مع الخلقِ في أرضِ اللهِ جلَّ وعلا .
فقَدْ عرَّضَ تلك النعمةَ للزوالِ .
لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى إنما جَعَلَهُ مُوَصِّلًا للنعمةِ إلى الخلقِ في الأرضِ .
فإذا تبرَّمَ مِن حوائجِ الناسِ فقَدْ عرَّضَ تلك النعمةَ للزوالِ .
#وعن زيْدِ بن ثابتٍ رضي الله عنه :

عن رسولِ اللهِ ﷺ قال :
لا يزالُ اللهُ في حاجةِ العبدِ ما دامَ في حاجةِ أخيه.
#يقولُ النبيُّ ﷺ :
عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ .

قِيلَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ ؟

قَالَ : يَعْتَمِلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ .

قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟

قَالَ : يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ .

قَالَ : قِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟

قَالَ : يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الخَيْرِ .

قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟

قَالَ : يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ .

حتى إذا ما أمسكَ الإنسانُ عن الشرِّ فقَدْ أتَى بالصدقةِ وإذا لم يستطع أنْ يأمرَ بالمعروفِ وأنْ ينهى عن المنكرِ ، وإذا لم يستطِع أنْ يُعينَ ذا الحاجةِ الملهوف ، وإذا لم يستطِع أنْ يعملَ بيدِهِ فينفعُ اللهُ نفسه وغيره ويتصدَّقُ على خلقِ اللهِ فعليه أنْ يُمسِكَ عن الشرّ فإنها صدقةٌ .

فمَنْ أمسكَ عن الشرِّ فقَد تصدّقَ كما قالَ الرسولُ ﷺ في هذا الحديثِ المتفقِ على صحتِهِ .

#وأفضلُ الأعمالِ إدخالُ السرورِ على المؤمنِ .

عن النبيّ ﷺ :

أفضلُ الأعمالِ : إدخالُ السرورِ على المؤمنِ كَسَوْتَ عَوْرَتَهُ ، أو أَشْبَعْتَ جَوْعَتَهُ ، أو قَضَيْتَ له حاجةً .

النبيُّ ﷺ يجعلُ في قمةِ الأعمالِ الصالحةِ ، وفي قمةِ الأعمالِ المقبولةِ عند اللهِ تبارك وتعالى إدخالَ السرورِ على المؤمنِ .

فيقولُ النبيُّ ﷺ: «أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدْخِلُهُ على مسلمٍ أو تَكْشِفُ عنهُ كُربَةً أو تَطْرُدُ عنه جَزَعًا أو تَقْضِي عنهُ دَيْنًا .
فى اللهِ تبارك وتعالى لم يجعل الأعمالَ الصالحةَ مقصورةً على أمورٍ بعَيْنِهَا ، وإنما جعلَ الخيرَ شائعًا في أعمالِ البرِّ والصلاحِ.

جاءَ رجُلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ :
يا رسولَ اللهِ أيُّ الناسِ أحبُّ إلى اللهِ ؟
وأيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى اللهِ ؟

فقالَ ﷺ :

أحبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهُم للناسِ ، وأحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدْخِلُهُ على مسلمٍ ، تكشِفُ عنه كُربةً ، أو تقضي عنه دَيْنًا ، أو تَطْرُدُ عنه جُوعًا .

#قضاءُ حوائجِ المسلمين أفضلُ مِن اعتكافٍ في مسجدِ النبيِّ الأمين ﷺ .

يقولُ الرسولُ ﷺ :

ولأَنْ أمشي مع أخٍ في حاجةٍ أحَبُّ إليَّ مِن أنْ أعتكِفَ في هذا المسجدِ يعني مسجدَ النبيِّ ﷺ شهرًا .

لَأَنْ يمشيَ النبيُّ ﷺ مع أخٍ في حاجةٍ أي حاجةٍ ما دامَت مما يرضَى عنه الشرعُ ؛ فذلك أحَبُّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ مِن أنْ يعتكِفَ في مسجدِهِ شهرًا .

ومع ذلك فَمَشْيُهُ في قضاءِ حاجةٍ لأخٍ مِن إخوانِهِ هي أفضلُ فضلًا وأعظمُ قَدْرًا وأحبُّ إلى الرسولِ ﷺ مِن أجرِ ذلك الاعتكافِ الذي طالت مُدَّتُهُ وعَظُمَت قيمتُهُ مِن الكريمِ مُحَمَّدٍ ﷺ في مسجدِهِ المُكَرَّمِ ومع ذلك يقولُ النبيُّ ﷺ :

ومَن كَظَمَ غَيْظَهُ ولو شَاءَ أنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ ؛ ملأَ اللهُ قلبَهُ يومَ القيامةِ رِضًا ومَن مَشَى مع أخِيهِ في حاجةٍ حتى يَقْضِيَهَا لهُ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ يومَ تزولُ الأقدامُ .

فهذا أَمْرٌ جعلَهُ النبيُّ ﷺ عظيمَ القَدْرِ أنْ تمشيَ مع أخٍ لك في حاجةٍ مِن أجلِ أنْ تقضيَهَا له بشرطِ أنْ تكونَ في إطارِ الشرعِ ، وغيرَ خارجةٍ عن حدودِ الدينِ وذلك خيرٌ كما بَيَّنَ الرسولُ ﷺ مِن اعتكافِ النبيِّ ﷺ ؛ إذ يقضي حاجةً لأخٍ مِن إخوانِهِ خيرٌ له وأحبُّ مِن اعتكافِهِ في مسجدِهِ شهرًا .

وعن أبي أُمامَةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ للهِ ﷺ قالَ :

مَنْ شَفَعَ شَفَاعَةً لِأَحَدٍ فَأُهْدِيَ لَهُ هَدِيَّةٌ عَلَيْهَا يعني على تلكَ الشفاعة فَقَبِلَهَا ؛ فَقَدْ أَتَى بَابًا عَظِيمًا مِن أَبَوابِ الرِّبَا .

وهذا حديثٌ صحيح يُبَيِّنُ فيه النبيُّ ﷺ أنه ينبغي علينا أنْ تكونَ أعمالُنَا خالصةً لوجهِهِ الكريمِ ، فإذا شَفَعَ إنسانٌ لأخٍ شفاعةً فَقُبِلَت،

فأَهْدَى إليه هذا الرَّجُلُ هديةً فأخذَهَا على تلك الشفاعةِ التي شَفَعَهَا فَقَدْ أتَى بابًا عظيمًا مِن أبوابِ الرِّبَا .

"قصة حرق مكتبة بغداد .. جريمة لن تسقط من التاريخ"

(وحرباً على الحضارة والاسلام)



الباحث/أحمد الجمال

ما لقومي كلما حطوا رحالاً   في سراديب الهوى شدوا رحالا
أغلقوا بوابة المجد وناموا   عند باب الذل يبنون الرمالا

جريمة حضارية

بينما كان فريق من التتار يعمل على قتل المسلمين وسفك الدماء اتجه فريق آخر من التتار لعمل إجرامي آخر.. عمل ليس له مبرر إلا أن التتار قد أكل الحقد قلوبهم على كل ما هو حضاري في بلاد المسلمين.. لقد شعر التتار بالفجوة الحضارية الهائلة بينهم وبين المسلمين؛ فالمسلمون لهم تاريخ طويل في العلوم والدراسة والأخلاق.. عشرات الآلاف من العلماء الأجلاء في كافة فروع العلم.. الديني منها والدنيوي.. لقد أثرى هؤلاء العلماء الحضارة الإسلامية بملايين المصنفات.. بينما التتار لا حضارة لهم.. ولا أصل لهم.. إنهم أمة لقيطة.. نشأت في صحراء شمال الصين، واعتمدت على شريعة الغاب في نشأتها.. لقد قاتلت هذه الأمة كما تقاتل الحيوانات.. بل عاشت كما تعيش الحيوانات.. ولم ترغب مطلقاً في إعمار الأرض أو إصلاح الدنيا.. لقد عاشوا حياتهم فقط للتخريب والتدمير والإبادة.. شتان بين هذه الأمة وبين أمة الإسلام، بل شتان بين أي أمة من أمم الأرض وأمة الإسلام.. وهذا الانهيار الذي رأيناه في تاريخ بغداد من المستحيل أن يمحو التاريخ العظيم لهذه الأمة العظيمة..

ماذا فعل مجرمو التتار؟!

لقد اتجه فريق من أشقياء التتار لعمل إجرامي بشع، وهو تدمير وإحراق مكتبة بغداد العظيمة.. وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن.. وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام.. جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون.. من علوم شرعية كتفسير القرآن والحديث والفقه والعقيدة والأخلاق، ومن علوم حياتية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة وغير ذلك.. هذا كله بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر.. فإن أضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم، الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك علمت أنك تتحدث عن معجزة حقيقية من معجزات ذلك الزمان..

لقد كانت مكتبة بغداد مكتبة عظيمة بكل المقاييس.. ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس.. وسبحان الله!!.. لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد!!!..

عندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة 636 هـ (قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط!!) قاموا بحرق مكتبة قرطبة تماماً.. وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه.. وكان اسمه "كمبيس"، وحرق كل ما وقعت عليه يده من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعرق والجهد..

لكن هذه سنتهم!..

حروبهم هي حروب على الحضارة.. وحروب على المدنية.. وحروب على الإسلام.. بل هي حروب على الإنسانية كلها..

ولكن قبل أن نتحدث عن ماذا فعل التتار بمكتبة بغداد تعالوا نتحدث – ولو قليلاً – عن مكتبة بغداد..

مكتبة بغداد

مكتبة بغداد هى أعظم دور العلم في الأرض – بلا أدنى مبالغة – قرابة خمسة قرون متتالية..
أسسها الخليفة العباسي المسلم هارون الرشيد –رحمه الله– والذي حكم الدولة الإسلامية من سنة 170هـ إلى سنة 193 هـ، ثم ازدهرت المكتبة جداً في عهد المأمون خليفة المسلمين من سنة 198 هجرية إلى سنة 218 هجرية.. وما زال الخلفاء العباسيون بعدهم يضيفون إلى المكتبة الكتب والنفائس حتى صارت داراً للعلم لا يُتخيل كمّ العلم بداخلها!!..
نحن نتحدث عن دار للعلم حوت ملايين المجلدات في هذا الزمن السحيق!!..

ملايين الكتب في مكتبة واحدة في زمان ليس فيه طباعة!!..

وكان هذا هو الأمر المتكرر والطبيعي في معظم حواضر الإسلام.. ولا ندري بالتحديد كم عدد الكتب في هذه المكتبة الهائلة.. وإن كانت تقدر حقاً بالملايين.. ويكفي أن مكتبة طرابلس بلبنان – والتي لم تكن تقارن أبداً بمكتبة بغداد– قد أحرق الصليبيون الأوروبيون فيها "ثلاثة ملايين" مجلد عندما وقعت في أيديهم!!.. فتخيل كم كان عدد المجلدات في مكتبة بغداد!!

كانت مكتبة بغداد تشتمل على عدد ضخم من الحجرات، وقد خصصت كل مجموعة من الحجرات لكل مادة من مواد العلم، فهناك حجرات معينة لكتب الفقه، وحجرات أخرى لكتب الطب، وهناك حجرات ثالثة لكتب الكيمياء ورابعة للبحوث السياسية وهكذا..

وكان في المكتبة المئات من الموظفين الذين يقومون على رعايتها، ويواظبون على استمرار تجديدها.. وكان هناك "النساخون" الذين ينسخون من كل كتاب أكثر من نسخة، وكان هناك "المناولون" الذين يناولون الناس الكتب من أماكنها المرتفعة، وكان هناك "المترجمون" الذين يترجمون الكتب الأجنبية، وكان هناك "الباحثون" الذين يبحثون لك عن نقطة معينة من نقاط العلم في هذه المكتبة الهائلة!..

وكانت هناك غرف خاصة للمطالعة، وغرف خاصة للمدارسة وحلقات النقاش والندوات العلمية، وغرف خاصة للترفيه والأكل والشرب، بل وكانت هناك غرف للإقامة لطلاب العلم الذين جاءوا من مسافات بعيدة!..

نحن إذن نتحدث عن جامعة هائلة.. وليست مجرد مكتبة من المكتبات..

لقد حوت هذه المكتبة عصارة الفكر الإنساني في الدنيا بأسرها..

لقد كان المأمون يشترط على ملك الروم في معاهداته معه بعد انتصارات المأمون المشهورة عليه أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكتب التي في مكتبة القسطنطينية.. وكان لخلفاء بني العباس موظفون يجوبون الأرض بحثاً عن الكتب العلمية بأي لغة لتترجم وتوضع في مكتبة بغداد بعد أن يتولاها علماء المسلمين المتخصصون بالنقد والتحليل..

لقد ترجمت في مكتبة بغداد الكتب المكتوبة باللغات اليونانية والسريانية والهندية والسنسكريتية والفارسية واللاتينية وغيرها..

هذه هي مكتبة بغداد!!

المكتبة التي جمعت كل علوم الأرض في زمانها..

1– بعد سقوط بغداد واستباحة التتار لها بينما كان فريق من التتار يعمل على قتل مسلمي بغداد، إتجه فريق آخرمن التتارلعمل إجرامي بشع آخر،وهو تدمير مكتبة بغداد العظيمة،وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن

٢– وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام،جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون من العلوم الشرعية،والطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء وعلوم الأرض والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة وغير ذلك...

٣–وإن أضفت إلى كل ماسبق الترجمات المختلفة لكل العلوم الأجنبية علمت أنك تتحدث عن معجزة حقيقية من معجزات ذلك الزمن.

لقد شعر التتار بالفجوة الحضارية الهائلة بينهم وبين المسلمين،فالمسلمون لهم تاريخ طويل في العلوم والدراسة والأخلاق وعشرات الآلاف من العلماء الأجلاء في كافة فروع العلم

٤– والتتار أمة لقيطة لا أصل لها,اعتمدت على شريعة الغاب في نشأتها,وعاشت كما تعيش الحيوانات، ولم ترغب مطلقًا في إعمار الأرض أو إصلاح الدنيا لقد عاشوا حياتهم فقط للتخريب والتدمير..

فلقد حمل التتار الكتب الثمينة،ملايين الكتب الثمينة...

٥– وفي أَرْيَحِيَّة شديدة وحماقة وغباء ألقوا بها جميعًا في نهر دجلة..!

ألقى التتار بمجهود قرون في نهر دجلة حتى تحول لون المياه إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب..حتى قيل أن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات من ضفة إلى أخرى...

٦– لقد كان الظن أن يحمل التتار هذه الكتب القيمة إلى"قراقورم"عاصمة المغول ليستفيدوا– وهم لا يزالون في مرحلة الطفولة الحضارية– من هذا العلم النفيس لكن التتار أمة همجية تسلطية تعيش للشهوات والملذات فقط..!

كانت مكتبة بغداد عظيمة بكل المقاييس...

٧– ولم يقترب منها في العظمة الا مكتبة مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس،وسبحان الله،لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد..فعندما سقطت قرطبة في يد النصارى(قبل سقوط بغداد بعشرين عاما فقط) قاموا بحرق مكتبة قرطبة تماما...

٨–وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه،وكان اسمه"كمبيس",أحرق كل ماوقعت عليه يده من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وأنفق فيها الكثير من المال والعرق والجهد.

وهذه جريمة متكررة في التاريخ:

لقد فعلها الصليبيون النصارى في الأندلس في مكتبة قرطبة

وفعلوها مرة أخرى في مكتبة غرناطة عند سقوطها

٩- فأحرقوا مليون كتاب في ميدان عام..

ولقد فعلها الصليبيون النصارى مرة ثالثة ورابعة وخامسة وعاشرة في مكتبات طليطلة وإشبيلية وبلنسية وسرقسطة وغيرها..

ولقد فعلوها أيضا في الشام في مكتبة طرابلس،فأحرقوا ثلاثة ملايين كتاب..

وفعلوها في فلسطين في مكتبات غزة والقدس وعسقلان...

١٠- ثم فعلها كذلك المستعمرون الأوروبيون الجدد الذين نزلوا إلى بلاد العالم الإسلامي،لكن هؤلاء كانوا أكثر ذكاءا،فإنهم سرقوا الكتب ولم يحرقوها وأخذوها إلى أوربا..

ومازالت المكتبات الكبرى في أوربا تحوي أعظم كتب العلم في الأرض.. ألفها المسلمون على مدار عدة قرون متتالية...

١١- هذه الجرائم ليست في حق المسلمين فقط،بل في حق الإنسانية كلها.. لكن هذه سنتهم..

كل ذلك لأن الغزاة يعرفون جيدا قيمة العلم في الإسلام..

وحروبهم كانت ولازالت هي حروب على الحضارة.. حروب على الإسلام...

وصدق أو لا تصدق " ما ذكرته أنت فى المقالة " هو الحرب العالمية الأولى .

نعم هناك 3 حروب عالمية :

الأولى > هى ما ذكرت

الثانية والثالثة > هو ما نعرفها جميعاً .

وكان الغرض من الأولى هى إبادة المسلمين وأضعافهم جداً بعد ما فشى فيهم كل مخالفات الشريعة من أول صغائر المخالفات وحتى الجرائم الكبرى.

وتم سلب الدول التالية كنتيجة :

إيران :

وتم تأسيس ملة جديدة تتمسح هذه المرة فى الإسلام ليس فقط نسيج يبنى عليه الملة بل هذه المرة عباءة الإسلام كاملة وتحت مظلومية جديدة لا تقل وقاحة عن مظلوميتهم فى أخذ المسجد الأقصى ؛ فهولاء يريدون المسجد الأقصى ويهود الدونمة بإيران يريدون الكعبة المشرفة والآن يطالبون من ملك السعودية إنفصال مكة على أنها تبعاً لآل البيت !!!!!! هل تتخيل هذه اللعبة المضحكة ! وهذه النكات العملاقة ؟

إسبانيا

البرتغال

البندقية " جزء من إيطاليا " وتم ضمها الى أيطاليا

جزء من فرنسا وتم ضمه الى فرنسا

جنوب إفريقيا >> الاساس الأول فى إنتاج الذهب عالمياً

لبنان : فأصبح الحاكم غير مسلم !!!!!!! وأصبح الزنا والسحاق والمحاق هو عادات وتقاليد هذه البلدة

جزء كبير من فلسطين : تحت إدعاء أكثر إضحاكاً مما سبق

هذه بخلاف وضع بنود وإتفاقيات وعملاء لحكم معظم بلاد المسلمين , ويكفى أننا الى الآن نعانى من جراء هذه الحرب والتى آخر نتائجها تقسيم السودان " البستان العملاق " الذى يكفى لغذاء العالم كله " 120 " مليون فدان ! وأصبحت هذه الدولة العملاقة بلدين 2 , كل بلد غير الأخري.

أما الحرب الثانية والثالثة العالميتين فهى لأهداف مهمة جداً يكفى فقط إتفاقية برتنى وود والتى تنص على : ان للولايات المتحدة الأمريكية حق طباعة الأوراق المالية بدون إعتبار غطاء الذهب لديها !!! هل تعرف ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى فقط ماكينات الطباعة وفقط الورق وسيتم شراء كل شئ وأى شئ بلا حساب وبلا أدنى هم أو تفكير

لو أكملت قراءة أحوال المسلمين في ذلك التاريخ لوجدت هذه الآية قد تحققت :

"فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا " .

ودائماً وأبداً .... سنحيا بالامل في الله.... سنحيا بالعلم....سنحيا بالكفاح......سنحيا بالتسامح .... سنحيا

بالإبتسامة الجميلة

بقلم:أ/أحمد الجمال

باحث في التاريخ الحديث والمعاصر

كاتب بعدة جرائد مصرية وعربية

مقدم التاريخ بالإذاعة المصرية